

مجلة البيان - العدد ١٤ ، صفر ١٤٠٩ ، أكتوبر ١٩٨٨ م

الافتتاحية

لابد من ملء الفراغ

كلما فكرت في حقيقة أن سبعين سنة من محاربة العقائد الدينية بكل الأساليب لم يُفَضَّ عليها ، ولم تغيبها في التراب - كما قدر أعداء العقائد الدينية - ازدادت ثقتي بالحق الذي أحمله ، وكان ذلك برهاناً على قصر النظرة البشرية التي تحدثها أو هامها أحياناً بأنها تعلم كل شيء ، وتريد أن تزيل من أمامها كل ما يعوقها عن تحقيق ما قصرت نظرتها وعلمها عليه.

أما هذه المعركة المشار إليها فهي التي وقعت - ولا تزال - بين الشيوعية والأديان. إن الشيوعية استخدمت كل الوسائل : المادية والمعنوية من أجل القضاء على "أفيون الشعوب" ولكن هل نجحت؟!

هل نجحت في القضاء على المسيحية - مع أن المسيحية لا تهتم إلا بالجانب الروحي من الحياة، تاركة الجانب المادي لقيصر - ولئن عجزت الشيوعية عن القضاء على المسيحية، فهي عن أن تقضي على الإسلام - الذي هو في حقيقته دين شمولي لشأن الدنيا والآخرة معاً - أعجز.

ليس من شأننا الحديث عن معاداة الشيوعية للأديان في روسيا ! ، ولكن نريد أن نتخذ من ذلك دليلاً على عبثية المحاولات التي تبذل من أجل المحو أو التحريف والتشويه للحقائق التي تؤمن بها الشعوب.

لا شك أن هناك حملة قوية من أغلب الفئات النافذة بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن هدفها تقليل التأثير الإسلامي في بنية الشعوب الإسلامية ، وإبعاده شيئاً فشيئاً عن جميع النواحي المهمة في الحياة وخاصة الثقافية منها والتشريعية والاقتصادية.

ومع أن هذه الفئات قد حققت كثيراً مما كانت تتطلع إليه ، لكن الهدف النهائي - وهو تخفيف قبضة العقيدة الإسلامية ، وترويض حدة الشعور الديني - لم يتحقق منه شيء ، ولا تبدو في الأفق بوادر تشير إلى ذلك ، بل إن المشاهد أن الشعور الإسلامي في تصاعد ، والاعتقاد بأن الكوارث المحيطة والمتربصة ليست إلا بسبب انفصام عرى العقيدة الإسلامية من بعض النفوس ، وأنه لا مخرج من هذا الواقع المتأزم إلا بعقد سلام بين الشعوب وتاريخها المغتصب ، والاعتراف بأن المجتمع لن يكون محصناً ولا قوياً وهو منشق على نفسه ، يتبرأ جانب من جانب ، ويطارد

قاهر مقهوراً ؛ لأن دوامة الزمن مستمرة في الدوران ، وغداً سيكون المۆتور وائراً ، وهكذا...

إننا إذا تناولنا جانباً من جوانب التجاهل والإهمال الذي يلقيه الإسلام في دياره - وهو الجانب الثقافي - سيبدو لنا التأزم والعبث بأوضح صورة. هذه خطط ، وتلك مناهج وضعت لتنشئة أجيال لتكون قادرة على الوقوف على قدميها في عالم عاصف بالأفكار ، والذين وضعوا ذلك وصلوا - برجاجة عقولهم ، وغزارة علمهم ، وقبل ذلك كله بحرارة إخلاصهم لأوطانهم وغنى عواطفهم نحو أبناء قومهم ! - إلى أن الإسلام شأنه شأن الأديان كلها ، لا يمثل إلا زاوية روحية يكفي أن يقدم الحديث عنه للأجيال ضمن هذه الزاوية : تعليم لبعض العبادات ، وحديث عن التوبة والمغفرة ، والذكر ومراسم الدفن ، وبعض مكارم الأخلاق مثل الرحمة والرفق بالحيوان ، وأشياء أخرى لا تخرج عن هذا الإطار الفقير. ويستطيع أن يقوم بتقديم هذا الجانب أي فرد - عالم أو جاهل - مؤمن بما يقول أو جاحد. والقصد من هذا الاختصار واضح لكل ذي نظر ، وهو ليس القناعة حتى بهذه الأشياء المقدمة ، بل الإجابة على تساؤل الذين يتساءلون بإلحاح : أين مكان الدين من تربية الأجيال ؟.

تريدون ديناً؟! ، لا مانع ، خذوا هذا الدين ! هذا هو الإسلام ! أما إذا لم يشف هذا الجواب العملي النفوس التي تحترق وتململت تطلب إجابة أشفى "كان الصراخ لها قرع الظنابيب" (١). نريد أن ننظر إلى واقعنا على ضوء هذا الذي يجري فيه ، فعندما لا يقتنع المسلم أن ما يقدم لأبنائه هو الإسلام ، فإنه يفتش عن بديل آخر لهذا ، كأن يلقن أبناءه الإسلام الذي يؤمن به والذي يراه مخالفاً - في اتساعه وشموله ، بل في أحكامه العملية - لهذا الإسلام المسكين المستكين الراكد العاجز الذي تحدثه عنه أجهزة الثقافة وأقنية الفكر.

وإذا افترضنا أن من الآباء من لا يباليون : أدرس أبناءهم إسلاماً وقرآناً أم درسوا غير ذلك؟! فإن من الآباء كذلك من يشعر بالمسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه ، ومن يعتقد اعتقاداً لا يتزعزع أن الله سائله كيف ربي ولده ، وهو لذلك يرى أن الأمر جد لا هزل فيه. وحتى أولئك الآباء غير المبالين ، عندما يشب أبناءهم عن الطوق ، ويقارنون ما لقنوا بما هو موجود في الكتب الإسلامية المبدولة بأعداد هائلة ، وبنسب تفوق كل أنواع الكتب الأخرى ؛ فإن كثيراً من هؤلاء الأبناء يراجعون ما لقنوا ، ويكتشفون الزيف الكثير في ذلك ، فإما أن يرفضوه جملة ، وإما أن يشكوا فيه ، وهما أمران ينتج عنهما انفصام في الشخصيات ، وتمزق داخلي ينعكس على تصرفاتهم وأعمالهم ، وبدلاً من أن يكونوا خلايا منتجة في جسم المجتمع يؤول

أمرهم إلى أن يكونوا خلايا مشلولة لا أثر لها ، أو مريضة تنفث التوتر والضعف في بنية الأمة.

وتبقى هناك فئة تمضي في البحث عن الحقيقة المغيبة بنفسها ، فإما أن تنجح في العثور عليها وإما أن تفشل، وهي في حالتها نجاحها وفشلها لا تحقق لمجتمعها شيئاً على المستوى العام ؛ لأن نجاحها فيما نجحت فيه لا يحسب لها ، بل عليها ، لأنه غير معترف به من قبل الذين رسموا وخططوا ، وفشلها يتخذ ذريعة لتثبيت الباطل الذي حاولت خارج إطاره ، ولاستمرار الزيف الذي لم يطفئ فيها التحرق للبحث عن الحق.

إن كبرى الأزمات التي نعاني منها مردها إلى هذه الحال التليفية التي نعيش فيها : تتجاوز فينا المتناقضات ، ونعيش في أجواء يسودها التنافر والتمزق ؛ فالكفر الصُّرَّاح بجانب نصف الكفر بجانب الإسلام وأجزاء الإسلام ! والعبودية ونصف العبودية بجانب الحرية وما هو فوق الحرية من الطغيان والجبروت ، والعروبة بجانب دعوى العروبة والشعبوية السافرة، والفساد المرخص له بجانب المساجد ودور العبادة ، والقوانين الحديثة المكتوبة ، بجانب القوانين السرية النافذة : قوانين العشائر والفئات والطوائف. وهيكل الدولة الحديثة الذي تسري فيه روح الغرائز وتسود فيه شريعة الغاب...

خط وتلفيق وحلول وسط تعكس نفوساً خربها النفاق وفتك بها الهوان فلم تعد تعرف معروفاً ، ولا تنكر منكراً.

الخرج من هذا الواقع المرير مرهون بأن نقف أمام أنفسنا وقفة صادقة ، وأن نعترف بسبب المشكلة أولاً ، وهو هنا عدم وجود دليل واضح ومنهج أصيل تسيير على هديه الأجيال الإسلامية ، ثم الانفصال بين مفهومين للإسلام في أذهان هذه الأجيال : مفهوم تقدمه فئة غير مقتنعة بالإسلام ولا تبالي بأي واد هلك ، إسلام مقطع الأوصال ، مشوه القسمات ؛ ومفهوم آخر تبحث عنه هذه الجموع المتعطشة التي فقدت ثقتها بكل شيء ، وانهارت أمام عيونها كل المناهج المستوردة والمفروضة ، وهي في خلال بحثها عنه تلاقى الجفاء والمقت ، وتعاني من الإنكار والجحود. وما لم يكن هناك اعتراف بهذه الحقيقة فإن جهودنا أفراداً وجماعات ستذهب سدى ، وسنبقى حيث نحن ، هدر للطاقات ، وتضحية بالكفاءات ، ومطاردة دائمة... حتى يأتي يوم نفقد فيه الطراد حيث نفقد الطرائد.

الهوامش :

١- شطر بيت لسلامة بن جندل وصدرة : إنا إذا ما أتانا صارخ فزِع ...
والصارخ : المستغيث ، والصارخ : الإغاثة. والظنابيب : جمع ظنوب ، وهو ظاهر الساق. ويمكن أن يستعار هذا المعنى للدلالة على الرد بعنف على الاحتجاج.

قضايا فقهية

الرد على من أباح الفوائد الربوية

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

جاءنا من سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز المقال التالي الذي يرد فيه على شبهات من يجيز الفوائد الربوية والمعاملات البنكية المتعلقة بها. الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه، أما بعد :

فقد اطلعت على البحث الذي أعده الدكتور إبراهيم بن عبد الله الناصر تحت عنوان: "موقف الشريعة الإسلامية من المصارف"، فألفيته قد حاول فيه تحليل ما حرم الله من الربا بأساليب ملتوية، وحجج واهية، وشبه داحضة، ورأيت أن من الواجب على مثلي بيان بطلان ما تضمنه هذا البحث، ومخالفته لما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة من تحريم المعاملات الربوية، وكشف الشبه التي تعلق بها ، وبيان بطلان ما استند إليه في تحليل ربا الفضل و ربا النسيئة ، ما عدا مسألة واحدة وهي ما اشتهر من ربا الجاهلية من قول الدائن للمدين المعسر عند حلول الدين: إما أن تزبي وإما أن تقضي، فهذه المسألة عند إبراهيم المذكور هي المحرمة من مسائل الربا، وما سواها فهو حلال، ومن تأمل كتابته اتضح له منها ذلك ، وسأبين ذلك إن شاء الله بياناً شافياً ، يتضح به الحق، ويزهق به الباطل، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإلى القارئ بيان ذلك :

أولاً : قال إبراهيم في أول بحثه ما نصه : يمكن القول إنه لن تكون هناك قوة إسلامية بدون قوة اقتصادية ، ولن تكون هناك قوة اقتصادية بدون بنوك ، ولن تكون هناك بنوك بلا فوائد !

والجواب أن يقال : يمكن تسليم المقدمة الأولى ؛ لأن المسلمين في كل مكان يجب عليهم أن يعنوا باقتصادهم الإسلامي بالطرق التي شرعها الله - سبحانه - حتى يتمكنوا من أداء ما أوجب الله عليهم، وترك ما حرم الله عليهم ، وحتى يتمكنوا بذلك من الإعداد لعدوهم، وأخذ الحذر من مكائده ، قال الله - عز وجل - : ((وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)) [المائدة: ٢] ، وقال - سبحانه - : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)) [المائدة: ١] ، وقال - تعالى - : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ

مِنْهُ شَيْئًا)) إلى قوله - سبحانه - : ((إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)) الآية [البقرة: ٢٨٢] ، وقال - تعالى - : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ)) الآية [النساء: ٢٩] ، وقال - سبحانه - : ((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ)) الآية [الأنفال: ٦٠]. والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وهي مشتملة على توجيه الله - سبحانه - لعباده إلى التعاون على كل ما ينفعهم في أمر دينهم ودنياهم ، وأمرهم بالتعاون على البر والتقوى ، وتحذيرهم من التعاون على الإثم والعدوان ، كما أمر - سبحانه - بالوفاء بالعقود وإثبات حقوقهم بالطرق الشرعية ، وحذرهم من أكل أموالهم بالباطل ، وأمرهم - سبحانه - بالإعداد لعدوهم ما استطاعوا من قوة ، وبذلك يستقيم اقتصادهم الإسلامي ، ويحصل بذلك تنمية الثروات وتبادل المنافع والوصول إلى حاجاتهم ومصالحهم بالوسائل التي شرع الله لهم ، كما حذرهم - سبحانه - في آيات كثيرة من الكذب والخيانة وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق ومن أكل أموالهم بينهم بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام ليميلوا عن الحق إلى الحكم بالجور ، وعظم - سبحانه - شأن الأمانة ، وأمر بأدائها في قوله - عز وجل - : ((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا)) [النساء: ٥٨] ، وقوله - سبحانه - : ((إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)) الآية [الأحزاب: ٧٢] ، وحذرهم - عز وجل - من خيانة الأمانة في قوله - سبحانه - : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)) [الأنفال: ٢٧] ، ووصف عباده المؤمنين في سورة "المؤمنون" وفي سورة "المعارج" بأنهم يراعون الأمانات والعهود وذلك في قوله - سبحانه - : ((وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)) [المعارج: ٣٢] ، والمؤمنون: ٨].

فمتى استقام المسلمون على هذا التعليم والتوجيه وتواصوا به وصدقوا في ذلك فإن الله - عز وجل - يصلح لهم أحوالهم، ويبارك لهم في أعمالهم وثرواتهم ، ويعينهم على بلوغ الآمال والسلامة من مكائد الأعداء ، وقد أكد هذه المعاني - سبحانه - في قوله - عز وجل - : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)) [التوبة: ١١٩]

وفي قوله سبحانه: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)) [النساء: ١٣٥] ، وقال - سبحانه - : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) [المائدة: ٨] ، وقال - سبحانه - ((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ)) الآية [الأنفال: ٦٠] ، وقال - عز وجل - : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)) [النساء: ٧١] ، والآيات في هذا أكثر من أن تُحصر.

وأما المقدمتان الثانية والثالثة - وهما قوله : ولن تكون هناك قوة اقتصادية بدون بنوك ولن تكون هناك بنوك بلا فوائد - فهما مقدمتان باطلتان ، والأدلة الشرعية التي قدمنا بعضها وما درج عليه المسلمون من عهد نبيهم - صلى الله عليه وسلم - إلى أن أنشئت البنوك ، كل ذلك يدل على بطلان هاتين المقدمتين ، فقد استقام اقتصاد المسلمين طيلة القرون الماضية، وهي أكثر من ثلاثة عشر قرناً بدون وجود بنوك، وبدون فوائد، وبدون فوائد ربوية، وقد نمت ثروتهم ، واستقامت معاملاتهم ، وحصلوا على الأرباح الكثيرة ، والأموال الجزيلة، بواسطة المعاملات الشرعية ، وقد نصر الله المسلمين في عصرهم الأول على أعدائهم، وسادوا غالب المعمورة ، وحكموا شرع الله في عبادته وليس هناك بنوك ولا فوائد ربوية، بل الصواب عكس ما ذكره الكاتب إبراهيم وهو أن وجود البنوك والفوائد الربوية صار سبباً لتفريق المسلمين، وانهيار اقتصادهم ، وظهور الشحناء بينهم ، وتفريق كلمتهم، إلا من رحمه الله، وما ذاك إلا لأن المعاملات الربوية تسبب الشحناء والعداوة، وتسبب المحق ونزع البركة وحلول العقوبات ؛ كما قال عز وجل: ((يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَّاءَ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)) [البقرة: ٢٧٦] والآن ما يقع بين الناس بسبب الربا من كثرة الديون ومضاعفتها بسبب الزيادة المتلاحقة كل ذلك يسبب الشحناء والعداوة ، مع ما ينتج عن ذلك من البطالة وقلة الأعمال والمشاريع النافعة؛ لأن أصحاب الأموال يعتمدون في تنميتها على الربا، ويعطلون الكثير من المشاريع المفيدة النافعة من أنواع الصناعات وعمارة الأرض وغير ذلك من أنواع الأعمال المفيدة.

وقد شرع الله لعباده أنواعاً من المعاملات يحصل بها تبادل المنافع، ونمو الثروات، والتعاون على كل ما ينفع المجتمع ، ويشغل الأيدي العاطلة ، ويعين الفقراء على كسب الرزق الحلال، والاستغناء عن الربا والتسول وأنواع المكاسب الخبيثة، ومن ذلك المضاربات وأنواع الشركات التي تنفع المجتمع ، وأنواع المصانع لما يحتاج إليه الناس من السلاح والملابس والأواني والمفارش وغير ذلك ، وهكذا أنواع الزراعة التي تشغل بها الأرض ، ويحصل بها النفع العام للفقراء وغيرهم ، وبذلك يعلم كل من له أدنى بصيرة أن البنوك الربوية ضد الاقتصاد السليم وضد المصالح العامة ، ومن أعظم أسباب الانهيار والبطالة ومحق البركات وتسليط الأعداء وحلول العقوبات المتنوعة والعواقب الوخيمة، فنسأل الله أن يعافي المسلمين من ذلك وأن يمنحهم البصيرة والاستقامة على الحق.

ثانياً : قال إبراهيم : إن وظيفة الجهاز المصرفي في اقتصاد ما تشبه إلى حد قريب وظيفه القلب بالنسبة لجسم الإنسان تماماً... الخ.

والجواب : ليس الأمر كما قال ، بل يمكن أن يقوم الجهاز المصرفي بما ذكره الكاتب ، من غير حاجة إلى الربا ، ولا ضرورة إليه كما قام اقتصاد المسلمين في عصورهم الماضية وفي عصرهم الأول الذهبي بأكمل اقتصاد وأظهره من دون

وجود بنوك ربوية كما تقدم ، وقد نصر الله بهم دينه ، وأعلى بهم كلمته وأدرّ عليهم من الأرزاق والغناء ، وأخرج لهم من الأرض ما كفاهم وأغناهم وأعانهم على جهاد عدوهم ، وحماهم به من الحاجة إلى ما حرم الله عليهم ، ومن درس تاريخ العالم الإسلامي من عهد النبي صلى الله عليه وسلم- إلى ما قبل إنشاء المصارف الربوية علم ذلك يقيناً.

وإنما يؤتى المسلمون وغيرهم في اقتصادهم ونزع البركات مما في أيديهم بأسباب انحرافهم عن شريعة الله، وعدم قيامهم بما أوجب الله عليهم، وعدم سيرهم على المنهج الذي شرعه الله لهم فيما بينهم من المعاملات، وبذلك تنزل بهم العقوبات، وتحل بهم الكوارث بأسباب أعمالهم المخالفة لشرع الله ؛ كما قال - عز وجل - : ((وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)) [الشورى: ٣٠] ، وقال - عز وجل - : ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)) [الأعراف: ١٩٦] ، وقال - سبحانه - : ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)) الآية [المائدة: ٦٥، ٦٦] ، وقال - تعالى - : ((وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)) [الطلاق: ٢، ٣] ، وقال - سبحانه - : ((وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً)) [الطلاق: ٤].

ثالثاً: ذكر إبراهيم في بحثه ما نصه : والسؤال الذي لم نعثر على جواب حتى الآن هو : كيف ينظر فقهاء المسلمين إلى الظاهرة الاقتصادية للفائدة ، ولماذا يعتبر القرض بالفائدة محرماً في نظرهم ؟... الخ.

والجواب عما ذكره هنا إلى نهاية بحثه المشار إليه أن يقال :

إنما نظر الفقهاء من سائر علماء المسلمين في أمر الفائدة وعلقوا بها التحريم؛ لأن الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- أنطت بها التحريم ، وهي أحاديث مستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم- ، لا مغمز فيها ، وهي تدل دلالة صريحة قطعية على أن بيع المال الربوي بجنسه مع أي زيادة - ولو قلت - ربا صريح محرّم ، ولكن الكاتب إبراهيم المذكور - هداه الله وألهمه رشده - أعرض عنها كلها ، ولم يلتفت إليها ، وإنما تكلم على الربا المجمل الوارد في القرآن الكريم ، وحاول بكل ما استطاع أن يحصر الربا في مسألة واحدة هي : ما إذا أعسر المدين واتفق مع الدائن على إمهاله بفائدة معينة، هذا ملخص بحثه، وما سوى ذلك فقد حاول في هذا البحث إلحاقه بقسم الحلال لحاجة الناس - بزعمه - إلى ذلك وأن هذا هو الذي تقوم به المصارف ، وزعم أن الحاجة داعية إلى ذلك، وأن مصالح العباد لا تتم إلا بهذه المعاملات الربوية التي تستعملها البنوك وقد تعلق بأشياء

مجملة من كلام الموفق بن قدامة وشيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم - رحمهم الله جميعاً - فيما ذكروه عن المصلحة وأن الشرع لا يمنع تحقيق المصالح التي تنفع المسلمين بدون ضرر على أحد ، ولا مخالفة لنص من الشرع المطهر.. وهذا كله لا حجة له فيه؛ لأن المصالح التي أراد هؤلاء الأئمة وأمثالهم تحقيقها إنما أرادوا ذلك حيث لا مانع شرعي يمنع من ذلك ، وذلك في المسائل الاجتهادية التي لا شيء فيها يوضح الحكم الشرعي ، وقد دلت الأحاديث الصحيحة عن النبي - صلى الله عليه وسلم- على تحريم ربا الفضل ، وعلى تحريم ربا النسيئة ، وذكر بعض أهل العلم أن تحريم ربا الفضل من باب تحريم الوسائل ؛ لأن عاقلاً لا يبيع شيئاً بأكثر منه من جنسه يداً بيد ، وإنما يكون ذلك إذا كان أحد العوضين مؤجلاً أو كان أحدهما أنفس من الآخر ، ولهذا لما باع بعض الصحابة - رضي الله عنهم - صاعين من التمر الرديء بصاع واحد من التمر الطيب ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم- بذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم- : " أوه عين الربا عين الربا لا تفعل ! " الحديث ، متفق عليه ، وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم- أنه قال : " لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ولا تُشَفُّوا (١) بعضها على بعض ولا تبيعوا الفضة بالفضة إلا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها غائباً بناجز " . وفي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد" . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة في الصحيحين وغيرهما .

وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم- في حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنه - : "إنما الربا في النسيئة" ، فالمراد به عند أهل العلم معظم الربا ، وليس مراده صلى الله عليه وسلم- كل أفراد الربا ، للحديثين السابقين وما جاء في معناهما من الأحاديث الصحيحة. وقد علم أن المعاملات الربوية تجمع بين ربا الفضل و ربا النسيئة ، فإن المودع بالفائدة قد جمع هو وصاحب البنك بين الأمرين ، وهما النسيئة والفائدة فباء بإثم المعاملتين. وأما كون المرابي البادل للفائدة قد يكون محتاجاً فهذا ليس هو الموجب للتحريم وحده بل قد جمع هذا العقد بين الربا وبين ظلم المعسر بتحمله الفائدة وقد عجز عن الأصل ، وبذلك تكون المعاملة معه على هذا الوجه أعظم تحريماً وأشد إثمًا ؛ لأن الواجب إنظاره وعدم تحميله ما حرم الله من الربا ، وأما اشتراك الدائن والمدين في الانتفاع بالمعاملة الربوية ، وأن كل واحد منهما يحصل منها على فائدة فهذا الاشتراك لا ينقل المعاملة من التحريم إلى الحل ولا يجعلها معاملة شرعية يباح فيها الربا ، لأن الشارع الحكيم لم يلتفت إلى ذلك ، بل حرم الفائدة تحريماً مطلقاً ، ونص على ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم- في أحاديث

منها ما تقدم ، ولو كان انتفاع المدين بالفائدة يحلها لنص عليه المولى - سبحانه - وبينه في كتابه الكريم أو على لسان رسوله الأمين - عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم - وقد قال الله - عز وجل - في سورة النحل : ((وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)) [النحل: ٨٩] ، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم- أنه قال : " ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمهم لهم" ، ومعلوم أن نبينا صلى الله عليه وسلم- هو أفضل الرسل وأكملهم بلاغاً وأتمهم بياناً ، فلو كانت المعاملة بالفائدة المعينة جائزة إذا كان المدين ينتفع بها لبينها النبي - صلى الله عليه وسلم- لأمته ، وأوضح لهم حكمها ، فكيف وقد بين -صلى الله عليه وسلم- في صريح أحاديثه تحريمها والتحذير منها والوعيد على ذلك ، وقد علم أن السنة الصحيحة تفسر القرآن ، وتدل على ما قد يخفى منه كما قال - تعالى - في سورة النحل : ((وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) [النحل: ٤٤] ، وقال - عز وجل - : ((وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)) [النحل: ٦٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة. وأما نقله عن الشيخ رشيد رضا في إجازته الربا في صندوق التوفير فهو غلط منه ، ولا يجوز أن يعول عليه والحجة قائمة عليه وعلى غيره من كل من يحاول مخالفة النصوص برأيه واجتهاده ، وقد تقرر في الأصول أنه : لا رأي لأحد ولا اجتهاد لأحد مع وجود النص ، وإنما محل الرأي والاجتهاد في المسائل التي لا نص فيها ، فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر إذا كان أهلاً للاجتهاد ، واستفرغ وسعه في طلب الحق ، لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم- من حديث عمرو بن العاص - رضي الله عنه - وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مثله ، أما المسائل التي نص على حكمها القرآن الكريم أو الرسول صلى الله عليه وسلم- في سنته فليس لأحد أن يجتهد في مخالفة ما دل عليه النص ، بل الواجب التمسك بالنص وتنفيذ مقتضاه بإجماع أهل العلم. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله. رابعاً: ثم قال الكاتب الدكتور إبراهيم في نهاية البحث ما نصه : "وخلاصة البحث بعد هذه المقارنة الواضحة بين الربا الذي ورد تحريمه في القرآن الكريم ، وبين المعاملات المصرفية يتضح لنا أن المعاملات المصرفية تختلف تماماً عن الأعمال الربوية التي حذر منها القرآن الكريم ؛ لأنها معاملات جديدة لا تخضع في حكمها للنصوص القطعية التي وردت في القرآن الكريم بشأن حرمة الربا ، ولهذا يجب علينا النظر إليها من خلال مصالح العباد وحاجاتهم المشروعة اقتداء برسول الله في إباحته بيع "السلام" رغم ما فيه من بيع غير موجود ، وبيع ما ليس عند البائع مما قد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم- في الأصل ، وقد أجمع العلماء على أن إباحة

السلم كانت لحاجة الناس إليه ، وهكذا فقد اعتمد العلماء على "السلم" وعلى أمثاله من نصوص الشريعة في إباحة الحاجات التي لا تتم مصالح الناس في معاشهم إلا بها".

والجواب أن يقال :

إن المعاملات المصرفية لا تختلف عن المعاملات الربوية التي جاء النص بتحريمها ، والله - سبحانه - بعث نبيه صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الثقليين ، وشرع لهم من الأحكام ما يعم أهل زمانه ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة ، فيجب أن تعطى المعاملات الجديدة حكم المعاملات القديمة إذا استوت معها في المعنى ، أما اختلاف الصور والألفاظ فلا قيمة له ؛ إنما الاعتبار بالمعاني والمقاصد ، ومعلوم أن مقاصد المتأخرين في المعاملات الربوية من جنس مقاصد الأولين وإن تنوعت الصور ، واختلفت الألفاظ ، فالتفريق بين المعاملات الربوية القديمة والجديدة بسبب اختلاف الألفاظ والصور مع اتحاد المعنى والمقاصد تفريق باطل ، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم- قول من قال يوم حنين : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط مثل قول بني إسرائيل لموسى : ((اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)) [الأعراف:١٣٨] ، ولم ينظر النبي صلى الله عليه وسلم- إلى اختلاف الألفاظ لما اتحد المعنى ، وهكذا عاقب الله بني إسرائيل لما نصبوا الشباك يوم الجمعة ليصيّدوا بها الصيد المحرم عليهم يوم السبت ولم يعذرهم بهذه الحيلة مع أنهم لم يأخذوا الصيد من الشباك إلا يوم الأحد وذلك لاتحاد المعنى وإن اختلفت الوسيلة. والأمثلة على هذا كثيرة في النصوص الشرعية ، وقد صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم- أنه قال : "لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل !".

وأما التشبيه بالسلم فهو من باب المغالطة والتعلق بما لا ينفع ، فإن إباحة السلم من محاسن الشريعة الكاملة ، وقد أباحه الله - سبحانه - لحاجة العباد إليه ، وشرط فيه شروطاً تخرجه عن المعاملات المحرمة ، فهو عقد على موصوف في الذمة بصفات تميزه وتبعده عن الجهالة والغرر - إلى أجل معلوم بثمن معجل في المجالس يشترك فيه البائع والمشتري في المصلحة المرتبطة على ذلك، فالبائع ينتفع بالثمن في تأمين حاجاته الحاضرة، والمشتري ينتفع بالمسلم فيه عند حلوله لأنه اشتراه بأقل من ثمنه عند الحلول ، وذلك في الغالب ، فحصل للمتعاملين في عقد السلم الفائدة من دون ضرر ولا غرر ولا جهالة ولا ربا. أما المعاملات الربوية فهي مشتملة على زيادة معينة نص الشارع على تحريمها في بيع جنس بجنسه نقداً أو نسيئةً ، وجعله من أكبر الكبائر لما له - سبحانه - في ذلك من الحكمة البالغة ولما للعباد في ذلك من المصالح العظيمة والعواقب الحميدة التي منها سلامتهم من تراكم الديون عليهم، ومن تعطيلهم المشاريع النافعة والصناعات المفيدة اعتماداً على فوائد الربا. وأما زعم الكاتب إبراهيم أن المصارف والأعمال المصرفية حاجة من حاجات العباد لا تتم مصالح معاشهم إلا بها... الخ فهو زعم لا أساس له من الصحة ، وقد تمت

مصالح العباد في القرون الماضية قبل القرن الرابع عشر وقبل وجود المصارف ، ولم تتعطل حاجاتهم ولا مشاريعهم النافعة ، وإنما يأتي الخلل وتتعطل المصالح من المعاملات المحرمة وعدم قيام المجتمع بما يجب عليه في معاملة إخوانه من النصح والأمانة والصدق والبعد عن جميع المعاملات المشتملة على الربا أو الغرر أو الخيانة أو الغش ، والواقع بين الناس في سائر الدنيا يشهد بما ذكرنا ، ولا سبيل إلى انتعاش المصالح وتحقيق التعاون المفيد إلا بسلوك المسلك الشرعي المبني على الصدق والأمانة والابتعاد عن الكذب والخيانة وسائر ما حرم الله على العباد في معاملاتهم ؛ كما قال الله سبحانه في كتابه المبين : ((وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)) [المائدة: ٢] ، وقال سبحانه : ((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)) [النساء: ٥٨] ، وقال سبحانه:- ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)) [الأنفال: ٢٧] ، وقال - عز وجل - : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بِيْخُسَ مِنْهُ شَيْئاً)) [البقرة: ٢٨٦] ، وقال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)) [الأحزاب: ٧٠، ٧١] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركت بيعهما" متفق على صحته ، وعن أبي سعيد - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: "الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، يداً بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى ، الأخذ والمعطي فيه سواء" رواه أحمد والبخاري .

وعن جابر - رضى الله عنه - قال : "لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- آكل الربا وموكله وكتابه وشاهديه ، وقال : هم سواء" رواه مسلم .

وعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : "الذهب بالورق ربا إلا هاء وهاء والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء ، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء" متفق عليه . وقال عليه الصلاة والسلام : "من غشنا فليس منا" رواه مسلم ، وقال - عليه الصلاة والسلام - : "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، فقالوا: بلى يا رسول الله ! ، فقال : الإشرāk بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان صلى الله عليه وسلم- فجلس فقال : ألا وقول الزور ، أو وشهادة الزور" متفق عليه . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

لا يجوز لأحد من الناس أن يحلل ما حرم الله بالنص قياساً على ما حلل الله بالنص ، ومن حاول أن يحلل ما حرم الله من الربا قياساً على ما أحل الله من السلم فقد أتى منكراً عظيماً ، وقال على الله بغير علم ، وفتح للناس باب شر عظيم وإفساد كبير ،

وإنما يجوز القياس عند أهل العلم القائلين به في المسائل الفرعية التي لا نص فيها إذا استوفى الشروط التي تلحق الفرع بالأصل ، كما هو معلوم في محله وقد حرم الله القول عليه بغير علم ، وجعله في مرتبة فوق مرتبة الشرك وبين - عز وجل - أن الشيطان يدعو إلى ذلك ويأمر به كما يدعو إلى الفحشاء والمنكر ، قال الله - سبحانه - : ((قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) [الأعراف: ٣٣] ، وقال - سبحانه - : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

فنسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين ، وأن يمنحهم الفقه في الدين ، وأن يوفق علماءهم لبيان ما أوجب الله عليهم من أحكام شرعه والدعوة إلى دينه ، والتحذير مما يخالفه ، وأن يكفيهم شر أنفسهم ، وشر دعاة الباطل ، وأن يوفق الكاتب إبراهيم للرجوع إلى الحق والتوبة مما صدر منه وإعلان ذلك على الملأ؛ لعل الله يتوب عليه كما قال - عز وجل - : ((وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) [النور: ٣١] ، وقال - سبحانه - : ((إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)) [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]. ولا شك أن مقاله يحتاج إلى أكثر مما كتبت ، ولكن أرجو أن يكون فيما بينته مقنعاً وكفاية لطالب الحق. والله المستعان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

نقد

قراءة في فكر مالك بن نبي

محمد العبد

إذا عدَّ المفكرون من المسلمين في هذا العصر فإن مالك بن نبي هو من هذه القلة الذين ينطبق عليهم هذا الوصف ؛ فالمفكر هو الذي يدرس ويتأمل ويقارن ويحلل المشكلة إلى أجزائها ، ثم ينسق ويركب ويجتهد في إيجاد الحلول. وقد ترددت كثيراً قبل الكتابة عن مالك بن نبي ؛ لا لأنه عميق الغور ، غوّاص في البحث والتنقيب ، أو لأن تتبع آرائه وأفكاره يحتاج إلى جهد ، بل لأنه يطرح أفكاراً وآراءً لا تتناسب مع عمق تفكيره ، يقف الإنسان أمامها حائراً : من أين جاءت ؛ وما هي الخلفية الثقافية التي جعلته يتبنى هذا الرأي أو ذلك ؛ وهل هو مؤيد أم

معارض ؟ وقد كان ذلك التردد وإعادة القراءة مرات ومرات حتى لا نظلمه ، وليستبين الحق وتوضح الصورة ، وتحل الإشكالات .
 إن الكتابة عن مالك بن نبي ضرورية للأجيال التي يجب عليها أن تتعرف على ما كتبه أصحاب الخبرة والتجربة في مجال الصراع الفكري المحتدم بين أوروبا المستعمرة والعالم الإسلامي منذ نهاية القرن الثامن عشر ، فلم يعد من المجدي طرح الحلول العامة والعائمة ولا بد من الدخول في التفاصيل ، ومعرفة أسباب الفشل وأسباب النهضة ، ولكن العجب لا ينقضي عندما ندرك أننا في كثير من الأحيان لا نستفيد مما كتبه السابقون لنا الذين تصدوا للإصلاح في أوائل هذا القرن .
 يقول الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر - في تقديمه لكتاب "في مهبط المعركة" مصوراً هذه الظاهرة : "فإذا نحن نرى أنفسنا في ضوء ما كتب قديماً ، كأننا لم نتقدم خطوة في فهم البلاء الذي ينزل بنا ولا يزال ينزل ، وأشد النكبات التي يصاب بها البشر نكبة الغفلة..." (١) .
 ولمالك مشكلة خاصة في انصراف بعض الشباب المسلم عن قراءة إنتاجه الفكري ، وهي إحدى الأسباب وليست السبب الوحيد على كل حال؛ فقد كتب سيد قطب رحمه الله:

"لقد كنت أعلنت مرة عن كتاب لي تحت الطبع بعنوان "نحو مجتمع إسلامي متحضر" ثم عدت في الإعلان التالي عنه فحذفت كلمة (متحضر) ، ولفت هذا التعديل نظر كاتب جزائري (يكتب بالفرنسية) ففسره على أنه ناشئ عن (عملية دفاع نفسه داخلية عن الإسلام) وأسف لأن هذه العملية - غير الواعية - تحرمني مواجهة المشكلة على حقيقتها .
 أنا أعذر هذا الكاتب... لقد كنت مثله من قبل... كانت المشكلة عندي - كما عنده اليوم - هي مشكلة (تعريف الحضارة).. ثم انجلت الصورة (المجتمع المسلم) هو (المجتمع المتحضر)" (٢) .

وفهم الشباب المسلم أن هذا الكاتب الجزائري واقع تحت ضغط آتٍ من مصادر أجنبية ، فكان ذلك سبباً لابتعادهم عن قراءة فكر مالك ، ولكن القضية هي قضية مصطلحات؛ فمالك يتكلم عن المجتمع الإسلامي الموجود وأنه يحتاج إلى رفعه إلى مستوى الحضارة حتى يستأنف دوره - وطبعاً لا يعني هنا الحضارة الغربية وإنما الحضارة بتعريفه هو - وسيد يتكلم عن المجتمع الإسلامي المنشود وأنه إذا وُجد فثم الحضارة ، والإسلام هو الوحيد الذي ينتج حضارة متكاملة، ولا شك أن سيداً - رحمه الله - أنقى وأوضح تصوراً وفكراً، وهو ينظر إلى الحضارة الغربية من علٍ ؛ لأنه المسلم المتميز بعقيدته وتصوراته ، ولكن مالكا هنا يبحث في التفاصيل والجزئيات ، وكيف يركبها لينتقل بالمسلم من حالة التخلف والركود إلى حالة (الإقلاع) للدخول في دورة الحضارة مرة ثانية ، وسيد يرى استيراد النظريات

العلمية(مجردة) ومالك يقول : هذه الأشياء المستوردة هي نتاج حضارة وثقافة ، هذه الأشياء صنعها علم النفس وعلم الاجتماع أيضاً ، ولذلك سواء استوردناها أو صنعناها لا بد أن تكون هناك ثقافة تحيط بها حتى تضعها في مكانها المناسب ، وحتى لا تتحول إلى (تكديس) وهذه الثقافة هي الثقافة الإسلامية..
إن ظاهرة انصراف بعض الناس عن فكر معين - بسبب كلمة تقال من عالم مشهور - ليست جديدة ولا غريبة ، فعندما ترجم أحد العلماء للمؤرخ ابن خلدون ؛ تكلم فيه وانتقد عليه بعض التصرفات الشخصية عنده ، فكان ذلك من أسباب إعراض الناس عن (المقدمة) التي تعتبر أعظم ما أنتجه المسلمون في علم الاجتماع وفن النقد التاريخي، ولمالك إيجابيات كثيرة سنتكلم عنها إن شاء الله ، وله أخطاء ، ولا بد من عرض كليهما حتى يتبين وجه الصواب لمن أراد ، وهو واضح جلي والحمد لله.

نبذة عن حياته :

وُلد مالك بن نبي في مدينة قسنطينة في الجزائر عام ١٩٠٥ ، ونشأ في أسرة فقيرة ؛ لأن جده لأبيه هاجر إلى طرابلس الغرب احتجاجاً على الاستعمار الفرنسي وحمل معه كل أملاك العائلة ، هذا الميلاد جعله يتصل بالماضي عن طريق من بقي حياً من شهوده (٣).

انتقل والده إلى (تبسة) فعاش فيها طفولته وكانت هذه المدينة الصغيرة بعيدة نوعاً ما عن (الحضور الفرنسي) وذلك لاحتكاكها بالقبائل المجاورة ؛ فحفظها الطابع البدوي عن الاختلاط مع الفرنسيين ، وفي (تبسة) كان يدرس في الصباح العربية والقرآن ثم يذهب في الساعة الثامنة إلى المدرسة الحكومية الفرنسية ، وفي المرحلة التكميلية كان يتابع دروس العربية والدين ، وكانت المدرسة الفرنسية تشجعه على المطالعة عن طريق إعارة الكتب.

تعرف على تلاميذ ابن باديس من الشباب ، وشعر أنه - وإياهم - على خط فكري واحد ، وكان يقرأ (الشهاب) و(المنتقد) قبلها ولكنه لم يتصل بالشيخ ابن باديس ولا تتلمذ عليه ، وفي (تبسة) حيث تعيش أسرته لم يتلمذ أو يؤيد تأييداً قوياً الشيخ العربي التبسي ، وكان هناك حاجزاً نفسياً بينه وبين المشايخ ، ويعترف بعد ربع قرن : "حينما تفحصت شعوري حول هذا الموضوع تبين لي أن السبب يكمن في مجموعة من الأحكام الاجتماعية المسبقة ، وفي تنشئة غير كافية في الروح الإسلامي" (٤) ، ويتابع الحديث عن الأسباب الاجتماعية : "فأحكامي المسبقة ربما أورتنيها طفولتي في عائلة فقيرة في قسنطينة ، زرعت لاشعورياً في نفسي نوعاً من الغيرة والحسد حيال العائلات الكبيرة التي كان الشيخ العربي ينتمي إلى واحدة منها" (٥) ، "وكنتم أعتقد أنني أقرب إلى الإسلام بالبقاء قريباً من البدوي أكثر من البلدي الرجل الذي يحيط به وسط متحضر ، وكان الشيخ العقبي يبدو في

ناظري بدويًا ، بينما يبدو الشيخ ابن باديس بلدياً" (٦) ، فقد تبين لنا أسباب جفائه لزعماء جمعية العلماء وهو شاب ، أما عندما نضج فكراً فسيكون له موقف مبني على أسس عنده سنتكلم عنها إن شاء الله.

بعد الانتهاء من الثانوية عمل متطوعاً في محكمة (تبسة) وهناك تعرف - من خلال تجوال أعضاء المحكمة في الريف - على رجل الفطرة الذي يستضيف أعضاء المحكمة رغم أنهم حكموا عليه بالضرائب والغرامات، ثم عمل موظفاً في محكمة (أفلو) التي تقع جنوب وهران في غرب الجزائر ، وهناك أيضاً تعرف على الكرم العربي والفطرة الصادقة: "فالناس في المدن لا يستطيعون فهم هذه العقلية أو ذاك النبل في عروق البدوي" (٧)، وتعرف على فضائل الشعب الجزائري قبل أن يفسده الاستعمار ، ثم انتقل للعمل في محكمة (شاتودان) ولم يطق معاملة موظفيها ؛ فاستقال وتوجه إلى فرنسا وذلك عام ١٩٣٠م في محاولة للانتساب إلى معهد الدراسات الشرقية ، ولكن طلبه رُفض ؛ لأن الدخول لهذا المعهد - كما يقول هو - لا يخضع لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي.

انتسب إلى مدرسة اللاسلكي ودرس الكهرباء والميكانيكا ، وهذه الدراسة أعطته بُعداً آخر يقول عنها : "فتح لي عالم جديد يخضع فيه كل شيء إلى المقياس الدقيق لكم والكيف ، ويتسم فيه الفرد - أول ما يتسم - بمميزات الضبط والملاحظة" (٨) ولكن دخوله مع العمل الطلابي المغربي وتعرفه على صديقه (حمودة بن الساعي) بدأ يغير من اتجاهه العلمي إلى التعمق في الدراسات الاجتماعية.

تخرج مهندساً كهربائياً عام ١٩٣٥ وبدأ رحلة شاقة في البحث عن عمل في البلاد العربية وغيرها ، وكانت الأبواب توصل في وجهه دائماً ، وسبب ذلك في رأيه هو أنه أراد تمزيق شبكة الاستعمار ولم يدر أن سمك القرلوق (الاستعمار) كان له بالمرصاد.

زار الجزائر في هذه الفترة ، ولاحظ وقوع الناس في حُمى الانتخابات والدجل السياسي بعد المؤتمر الجزائري.

عاد إلى فرنسا في مطلع الحرب العالمية الثانية مودعاً الجزائر بهذه العبارة :
" يا أرضاً عقوقاً ! ؛ تطعمين الأجنبي وتتركين أبناءك للجوع ، إنني لن أعود إليك إن لم تصبحي حرة ! " ، وبقي في فرنسا حتى عام ١٩٥٦ أصدر فيها باللغة الفرنسية :
"الظاهرة القرآنية" ، "شروط النهضة" ، "وجهة العالم الإسلامي" ، "الفكرة الإفريقية الآسيوية".

زار مصر عام ١٩٥٦ وبقي فيها حتى عام ١٩٦٣ ، وكان له في مصر تلاميذ وأصدقاء ، وزار خلالها سورية ولبنان ألقى فيها المحاضرات حول موضوع "مشكلات الحضارة" ، وفي القاهرة أصدر : "حديث في البناء الجديد" ، "مشكلة الثقافة" ، "في مهب المعركة" ، "تأملات في المجتمع العربي".

عاد إلى الجزائر عام ١٩٦٣ حيث عُين مديراً عاماً للتعليم العالي وأصدر في الجزائر : "أفاق جزائرية" ، "يوميات شاهد للقرن" ، "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" ، "المسلم في عالم الاقتصاد".
استقال من منصبه عام ١٩٦٧ وتفرغ للعمل الفكري.
توفي في ١٩٧٣/١٠/٣١ في الجزائر - رحمه الله وغفر له - .
شخصيته :

يجتمع في مالك بن نبي خطان رافقاه طوال حياته ، فهو شخصية عاطفية ، خيالية أحياناً ، يفكر بأحلام الفلاسفة ويهيم بالتجريد. يقول عن نفسه : "أنا شديد التأثر بالحدث ، وأتلقى صدمته بكل مجامعي وبانفعالية تستطيع أن تنتزع مني دموع الحزن حين يثير الحدث الحبور من حيث المبدأ" (٩) وقد بكى عندما اندحر الجيش الفرنسي أمام ألمانيا عام ١٩٤٠ مع أنه يكره الاستعمار الفرنسي ، ويعلق هو على هذا التصرف : "رأيت في ذاتي عنصراً آخر كشف كل التعقيد في ضمير مسلم" (١٠) ولم يوضح ما هو هذا العنصر الآخر ولكن يبدو لي أنه عدم التوازن بين القيم الأخلاقية وأيها يصلح لتطبيقه على الحدث ، وعندما سمع حديث والدته وذكرياتهما عن الحج لم يستطع حبس دموعه فكان يتظاهر بالعطش ليخرج إلى الشرفة فيطلق العنان للدمع(١١).

هذه العاطفة أنتجت له شخصية حاملة أحياناً ، فعندما يسمع ويقرأ عن شاعر مثل (طاغور) تفتتح أمامه الأحلام عن الشرق وأن الإنقاذ ربما يأتي من روحانية الهند كما يسميها ، وعندما يسمع بأنباء الخلاف بين الملك عبد العزيز آل سعود وإمام اليمن يكتب رسالة إلى سفارة اليابان يدعو حكومتها للتدخل باسم التضامن الآسيوي لمساعدة ابن سعود حتى لا تتمزق الجزيرة العربية ، وطبعاً لم يستجب (الميكادو) لطلبه !

وفي الجانب الآخر نجد شخصية مالك الناقد المحلل الذي يمتلك القدرة الفائقة على النفاذ لأعمق المشكلة وبيان أسبابها ، من خلال النظرة العلمية الصارمة ، ومن خلال اطلاع واسع على الثقافة الغربية وكيف تنشأ الحضارات مع معرفة بواقع المجتمعات الإسلامية من خلال معرفته الشخصية بالمجتمع الجزائري ، وهو في مقارناته وتحليلاته يشبه سلفه المغربي المؤرخ ابن خلدون ، حيث تلتقط الذاكرة كل جزئية وكل حادثة ثم يبدأ التحليل والمقارنة ثم يخرج بالنتائج التي يرتضيها ، يقول عن سكان (أفلو) عندما عمل عندهم كمساعد في المحكمة :
"فملكية الإنسان لأرض ما تخلق في نفسه غرائز اجتماعية قد سلم منها الراعي ، ففي دعوى أمام القضاء في (تبسة) يستطيع كل فريق أن يقدم عشرة شهود زور بالمجان، وشهود كل واحد من الطرفين سيحلفان أنهما يقولان الحقيقة ، أما في (أفلو) فقد لاحظت الرجل يرفض غالباً أن يحلف ولو كان ذلك لدعم حقه الواضح"(١٢).

وعندما أراد القيام بعمل علمي مشترك مع صديقه (ابن الساعي) فشلت المحاولة ؛ فعلق قائلاً : "ولم أكن أعلم أن العمل الجماعي بما يفرض من تبعات إنما هو من المقومات التي فقدها المجتمع الإسلامي ثم لم يسترجعها بعد خصوصاً بين مثقفيه" (١٣).

هذان الخطان استمرا في حياة ابن نبي ، فالعاطفة التي تجمع إلى الخيال أحياناً جعلته يعقد في الخمسينات آمالاً كباراً على مؤتمر باندونغ وظن أنه سيحل مشكلة العالم الثالث ، ومن رفات (غاندي) سينطلق يوماً انتصار اللاعنف ونشيد السلم العالمي (١٤). كما استمر النقد التحليلي للمجتمع الإسلامي ومواطن الضعف فيه فتكلم عن الذين يظنون أن الإصلاح يبدأ من (علم الكلام) كالشيخ محمد عبده ، يقول : "إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده ونملاً به نفسه" (١٥).

ويكتشف مالك جرثومة المرض ، فالذين تركوا الطواف حول القبور وأخذ البركات من الدرويش لم يستطيعوا الاستمرار فتحولوا إلى الطواف حول وثن جديد وهو وثن الأحزاب السياسية والانتخابات (١٦) ، ولأن العمائم أسلمت القيادة إلى (المطربشين) ؛ لأن العلماء لم يكونوا على جانب من الخبرة بوسائل الاستعمار في مجال الصراع الفكري حتى يفتنوا إلى هذا الانحراف (الغوغائية السياسية).

العوامل المؤثرة في ثقافته :

١ - وُلد مالك بن نبي في عصر سمع فيه من جدته لأمه قصص الاحتلال الفرنسي للجزائر ، وعاش مأساة بلد يخطط الاستعمار لشل فاعليته ، ومن ثم لتحويله إلى فريسة سهلة الاتهام ، عاشها مالك يوماً بيوم في المدرسة الفرنسية حيث لا يسمح (لابن البلد) إكمال الدراسة الثانوية التي تؤهله للدراسات الجامعية ، وعاشها في تحول المجتمع عن فطرته وكيف ساد الصعاليك بمعونة الإدارة الفرنسية ، وكيف أصبحت العائلات العريقة فقيرة ، ذليلة بسبب الاستيلاء على أراضيها ، وكان اليهود هم الوسطة لانتقال الملكية من أبناء البلاد إلى أبناء المستعمر ؛ فاليهودي دائماً كان يقرض بفائدة ٦٠% ، وعندما درس في فرنسا وعاش مع الجالية الجزائرية رأى الاستعمار من زواياه المختلفة ، وشعر بخبث الأساليب التي يقوم بها لتمزيق العالم الإسلامي.

٢ - القراءات الغزيرة المتنوعة ، فقد بدأ بالقراءة منذ أن كان صغيراً في الابتدائية ، وقرأ كتب علم النفس والاجتماع وهو لا يزال في المرحلة الثانوية ، وكان يقرأ كل الصحف التي تصل إلى قسنطينة أو تبسة ، ولا شك أن هذا الاطلاع الواسع على الثقافة الغربية هو في جانب منه على حساب الثقافة الإسلامية وكان له أثر عليه أيضاً ، فكثرة قراءاته لأعمال الفلاسفة جعلته يعتبر عصر الفارابي عند المسلمين هو عصر خلق الأفكار مع أن الفارابي وأمثاله لم يقدموا شيئاً يذكر للحضارة الإسلامية ،

وكانت نعمة (الإنسانية) و(العالمية) سائدة عند الفلاسفة الغربيين ، ونجد مالك يكررها فيتكلم عن حضارة اليوم التي تسير نحو الشمول والعالمية (١٧) ويستعمل أحياناً عباراتهم التي هي نتيجة انفصام عندهم بين الدين والعلم مثل قوله : "إن الطبيعة توجد النوع... " (١٨) أو وهبته الطبيعة.

٣ - ثقافته الإسلامية : يعترف مالك بأن الذي كان يرده عن الغلو في هذا الاتجاه (القراءات الكثيرة للفكر الغربي) هو ما كان يتلقاه من دروس في التوحيد والفقه ، وقراءاته للكاتب التي تأتي من المشرق العربي مثل : "الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق" لأحمد رضا ، و"رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده ، و"طبائع الاستبداد" للكواكبي ، والمجلات الإسلامية الجزائرية مثل (الشهاب) التي يصدرها الشيخ ابن باديس ، ولا شك أن ثقافته الشرعية ضعيفة ولكن عنده اطلاع على التاريخ الإسلامي وقدرة على فهم الآيات والأحاديث التي تتعلق بسنة التغيير الاجتماعي وبسبب عمق تفكيره وتحرفه على العالم الإسلامي كان يرى أن بذرة عودة الوعي للأمة الإسلامية هي في حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي يعتبرها امتداداً لما قام به ابن تيمية في التجديد ، ولنفس السبب أيد جمعية العلماء في الجزائر وكان يعقد الأمل عليهم في الإصلاح وإن اختلف معهم بعدئذ ، ولتبعده عن المشرق ولضعف ثقافته الشرعية كان يمجّد جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده ويرى أن الأول هو مصلح الشرق ؛ ثقافته الإسلامية خليط من آراء مدرسة الأفغاني ومحمد عبده ومن فهمه لآيات القرآن وسنن التغيير ، وأنه لا بد من الرجوع إلى طريقة القرآن والسنة في رفع الناس إلى مستوى الروح كما يعبر هو ، والحقيقة أنه يجمع أشياء متناقضة وإن بدت منسجمة بالنسبة له.

٤ - ومن المؤثرات الواضحة في شخصيته ما عاناه من الفقر الشديد في طفولته ، وحياة النَّصَب والتعب التي عاشها في شبابه بحثاً عن العمل ، سواء في الجزائر أو فرنسا ، فقد عمل بعد تخرجه من الثانوية في مصنع للأسمنت في مدينة (ليون) بفرنسا ، فكان يحمل الأكياس على ظهره ، ومرة باع بعض ملابسه حتى يوفر وجبة غداء ، وبعد تخرجه من الهندسة طرق أبواب العمل في الدول العربية والإسلامية ولكن دون جدوى.

هذه الأوضاع النفسية جعلته يكره - وهو صغير - الدور المترفة التي كانت تفضح أمام ناظره بؤس أقاربه ، وأحكامه المسبقة كانت بسبب العيش في عائلة فقيرة زرعت لاشعورياً في نفسه من الغيرة والحسد حيال العائلات الكبيرة (١٩) ، وكان يعجبه مطالعة صحيفة (الإقدام) التي يصدرها الأمير خالد الجزائري والتي كانت تركز على موضوع الفلاح الجزائري وبؤسه.

هذا ما يفسر لنا ميله للدول التي بدأت بتطبيق الاشتراكية كالجمهورية العربية المتحدة (٢٠) والجزائر بعد استقلالها (٢١)، وبتأثير من هذه الدول كان يظن أن الاتحاد السوفييتي ليس عنده مناخ استعماري وهو صديق للشعوب!

-يتبع-

الهوامش :

- ١ - مالك بن نبي : في مهب المعركة ، تقديم محمود محمد شاكر ، ٣ ،
- ٢ - سيد قطب : معالم في الطريق ، ١١٧ ،
- ٣ - مالك بن نبي : مذكرات شاهد للقرن ، ١٥ ،
- ٤ - مالك بن نبي : مذكرات شاهد للقرن ، ١٣١ .
- ٥ - المصدر السابق ، ١٣١ ،
- ٦ - المصدر السابق ، ١٣٢ ،
- ٧ - المصدر السابق ، ١٧٤ ،
- ٨ - مالك بن نبي : مذكرات شاهد للقرن ، ٢١٩ ،
- ٩ - مذكرات شاهد للقرن ، ١٣٧ ،
- ١٠ - المصدر السابق ، صدق مالك في تحليله هذا ؛ فقد سمعت من أحد الإخوة العاملين في حقل الدعوة الإسلامية أنه بكى عندما سمع بنبأ هلاك عبد الناصر مع أنه يكرهه كرهاً شديداً !
- ١١ - المصدر السابق ، ٢٩١ .
- ١٢ - مذكرات شاهد للقرن ، ١٧٦ .
- ١٣ - المصدر السابق ، ٢٣٥ ،
- ١٤ - في مهب المعركة ، ٨٧ ،
- ١٥ - وجهة العالم الإسلامي ، ٥٥ .
- ١٦ - شروط النهضة ، ٣٤ ،
- ١٧ - في مهب المعركة ، ٣٣ ،
- ١٨ - ميلاد مجتمع ، ١٦ ،
- ١٩ - مذكرات شاهد للقرن ، ١٣١ ،
- ٢٠ - ميلاد مجتمع ، ٤٨ ،
- ٢١ - بين الرشاد والتهيه ، ٢٤ ،

شذرات وقطوف

اختيار : مازن محمد راغب

مكانة القرآن

إن للقرآن أعلى حظوة لدى المسلمين، وهو عندهم ليس مجرد كتاب صلوات، أو أداة نبوية أو غذاء للروح، أو تسابيح روحانية فحسب؛ بل إنه أيضاً القانون السياسي وكنز العلوم ومرآة الأجيال، إنه سلوى الحاضر وأمل المستقبل.

د. محمد عبد الله دراز - دراسات إسلامية

أمطر المعروف مطراً

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لا يزدنك في الصروف كفر من كفره، فإنه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه.

وأشده عبد الله بن جعفر قول الشاعر:

إن الصنيفة لا تكون صنيفة حتى تصيب بها طريق المصنع

فقال: هذا رجل يريد أن يبخل الناس (يدعوهم إلى البخل) أمطر المعروف مطراً، فإن أصابت موضعاً فهو الذي قصدت، وإلا كنت أحق به.

وقال الحسن والحسين - رضي الله عنهما - لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفت في

بذل المال! قال: بأبي أنتما وأمي، إن الله عودني أن يفضّل عليّ، وعودته أن

أفضل على عباده، فأخاف أن أقطع عنه العادة فيقطع عني المادة!

طريقتان

هناك طريقتان للحياة:

طريقة سلبية مبدؤها رؤية مساوئ الرجال والأعمال، ليس لإصلاحها، بل

لاستغلالها بشكل هدام، والعودة إليها بمناسبة وبدون مناسبة.

وطريقة إيجابية تنظر إلى الأمور بعين الرضا، وتبحث عن محاسن الرجال لتنميتها

وتحسينها، وتعطف على ضعفهم وأخطائهم، وتعمل على إصلاحها بكل دماثة.

لمحات في فن القيادة - ج. كورتوا

كتب

السيرة الكبرى

للإمام محمد بن الحسن الشيباني

عثمان جمعة ضميرية

المعنا في العدد "الثاني عشر" إلماعات سريعة ، ترجمنا فيها للإمام محمد بن الحسن الشيباني ، ليكون ذلك مدخلاً للتعريف بكتاب من أهم كتبه ، بل من أهم الكتب في فقه العلاقات الدولية في الإسلام ، وهو كتاب "السير الكبير".

- ٢ -

كان الاسم الذي أطلقه المسلمون في بداية حركة التدوين في الفقه الإسلامي على دراستهم التي تناولت موقف الإسلام من السلم والحرب والحياد ، وكل ما يتعلق بأحكام الجهاد ومعاملة غير المسلمين هو "السير".

و"السير" جمع "سيرة" وتعني السَّير والسلوك ، ومما يؤيد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- ، مثل قوله - بعد أن دفع اللواء لأحد القواد - : "فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلّوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم" رواه مسلم وغيره. وذكر محمد بن حبيب في كتابه "المحبر" وهو يتحدث عن أسواق العرب المشهورة في الجاهلية - أنهم "كانوا يصنعون فيها الصنيعة (الضيافة) ، ويسيرون فيها بسيرة الملوك بدومة الجندل" (ص ٢٦٥).

وذكر ابن سعد في "الطبقات الكبرى" كتاب النبي صلى الله عليه وسلم- إلى عبد القيس ، وفيه : .. "ولهم على جند المسلمين الشركة في الفء ، والعدل في الحكم ، والقصد في السيرة ، حكم لا تبديل له في الفريقين" (الطبقات : ٢٨٣/١) ، وفي هذه النصوص القليلة نجد أن سيرة الحاكم ليست فقط وقت الحرب ، بل وقت السلم أيضاً ، يشار إليها باصطلاح "سير" وذلك منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم- ولعل اتخاذ هذا المصطلح للدلالة على نظرية الحرب والسلم ، أو ما يسمى اليوم "بالقانون الدولي" كان منذ عهد أبي حنيفة الذي عرف أنه أول من استعمل مصطلح "سيرة" لتمييز مجموعة دروسه التي كان يلقيها عن الإسلام في الحرب والسلم ، ووصلت هذه الدروس منقحة على يد تلاميذه في كتابي "السير الصغير" و"السير الكبير" لمحمد بن الحسن الشيباني ، و"الرد على سير الأوزاعي" لأبي يوسف ، كما أن الإمام الشافعي - رحمه الله - يشير إلى "سير الواقدي" في كتابه "الأم".

ومن ثم فإنه يبدو أن كلمة "السير" قد صارت مصطلحاً فنياً يشيع استعماله بين الفقهاء في مختلف العصور ، وقد نص السرخسي على هذا الفهم ، فقال في "المبسوط" - وهو يشرح كتاب "السير الصغير" للإمام محمد : " اعلم أن السير جمع سيرة ، وبه سمي هذا الكتاب ، لأنه بين فيه سيرة المسلمين في المعاملة مع المشركين من أهل الحرب ، ومع أهل العهد منهم من المستأمنين ، وأهل الذمة ، ومع المرتدين الذين هم أخبث الكفار بالإنكار بعد الإقرار ، ومع أهل البغي الذين حالهم دون حال المشركين ، وإن كانوا جاهلين ، وفي التأويل مبطلين" (المبسوط: ٢/١٠).

- ٣ -

كان الإمام محمد بن الحسن أول من أفرد للعلاقات الدولية في الإسلام مؤلفات خاصة يتناول فيها أحكام الجهاد والحرب ، وأحكام الصلح والمعاهدات ، وأحكام الأمان ، وإرسال السفراء والمبعوثين ، وأثار قيام الحرب ، وسياسة المسلمين في تنظيم الحرب ، وما يجوز وما لا يجوز في ذلك كله... الخ. وله في هذا كتابان : أحدهما "السير الصغير" الذي كتبه أولاً ، وقد رواه عن أبي يوسف وقرأه عليه توثقاً من النص وصحة نسبة الرأي ، والثاني "السير الكبير" وهو أوسع من الأول ، كما أنه من آخر كتب الإمام محمد تأليفاً ، وفيه إفاضة وشرح أكثر وأوسع كما يظهر من عنوان الكتابين ومن مادتهما من خلال الشروح التي وصلتنا وفي هذه الكلمة التعريفية بالكتاب ، نخص فيها كتاب "السير الكبير" ومعه الشرح الممتع القيم الذي وضعه عليه شمس الأئمة السرخسي المتوفى في القرن الخامس الهجري ما بين (٤٨٣-٤٩٠هـ).

- ٤ -

وعن سبب تأليف هذا الكتاب يقول السرخسي : "إن السير الصغير وقع في يد عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي - عالم أهل الشام - فقال : لمن هذا الكتاب ؟ فقيل : لمحمد العراقي. فقال : وما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب ؛ فإنه لا علم لهم بالسير. ومغازي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق ، فإنها محدثة فتحاً. فبلغ ذلك محمداً ، فغاضه ذلك ، وفرغ نفسه حتى صنف هذا الكتاب.

فحكي أنه لما نظر فيه الأوزاعي قال : لولا ما ضمنه من الأحاديث لقلت إنه يضع العلم من عند نفسه ، وإن الله عين جهة إصابة الجواب في رأيه. صدق الله العظيم : ((وفوق كل ذي علم عليم)) (شرح السير الكبير: ٣/١). ويناقش الشيخ محمد أبو زهرة وغيره من الباحثين هذا السبب لتأليف الكتاب ويرده ؛ إذ لا مجال لتصديقه ، لأن الإمام الأوزاعي توفي سنة (١٥٧هـ) والإمام محمد ولد سنة (١٣٢هـ) ، فيكون الأوزاعي قد توفي ومحمد عمره خمس وعشرون سنة ، ومكث محمد نحو اثنتين وثلاثين سنة لا يؤلف ، إذ إنه توفي سنة (١٨٩) أي بعد الأوزاعي باثنتين وثلاثين سنة ، وهذا غير معقول ولا مقبول ، ولا يتفق مع تاريخ الكتاب ولا مع حياة محمد -رضى الله عنه -.

وعلى ذلك فإن كلام السرخسي عن سبب تأليف الكتاب غير مقبول ، وقد يوجه توجيهاً صحيحاً بأن المقصود "السير الصغير" ، أو أن نقول إن المراد بكلام الأوزاعي هو "الرد على سير الأوزاعي" لأبي يوسف وليس "السير الكبير". وقد نكون في غنى عن هذا كله ، إذا علمنا شغف محمد -رحمه الله - بالعلم والتأليف ، وأن ذلك كان تلبية لحاجة العصر الذي عاش فيه ، فكان من الواجب الملح بيان

أحكام الإسلام في التعامل مع الآخرين ، والمسلمون يقومون بواجب الجهاد ، فكتب "السير الصغير" أولاً ، ثم أوسع هذا الموضوع بحثاً في "السير الكبير".

- ٥ -

ولبيان قيمة هذا الكتاب وأهميته نذكر أن محمداً - رحمه الله - لما فرغ من الكتاب أمر أن يكتب هذا الكتاب في ستين دفترًا ، وأن يحمل على عجلة إلى باب الخليفة ، فقيل للخليفة : قد صنف محمد كتاباً يحمل على العجلة إلى الباب. فأعجبه ذلك وعده من مفاخر أيامه. فلما نظر فيه ازداد إعجابه به. ثم بعث أولاده إلى مجلس محمد - رحمه الله - ليسمعوا منه هذا الكتاب.

ومن الطريف في نقل الكتاب وروايته : أن إسماعيل بن توبة القزويني - مؤدب أولاد الخليفة - كان يحضر معهم ليحفظهم كالرقيب ، فسمع الكتاب ، ثم اتفق أن لم يبق من الرواة إلا إسماعيل بن توبة وأبو سليمان الجوزجاني ، فهما رويًا عنه هذا الكتاب. شرح السير الكبير : (شرح السير الكبير: ١/٣-٤).

* وقد أثنى على هذا الكتاب كل الباحثين المهتمين بالعلاقات الدولية في الإسلام ، ووجدوا فيه علماً غزيراً ، وأسلوباً ممتعاً ، وفقهاً أصيلاً ، فقال الدكتور نجيب أرمنازي في كتاب "الشرع الدولي في الإسلام" (ص ٤٥) : "هو كتاب غزير المادة ، جم الفوائد ، قد استوعب أصول هذا العلم ، واستقصى غرائب مسأله ، ولم يقتصر فيه على ما ذهب إليه أعلام المذهب الحنفي ، بل أورد كثيراً من مذاهب الآخرين وناقش أصحابها في حججهم. وطريق محمد في الترجيح في هذا الكتاب هو أنه نظر فيما اختلف فيه أهل العراق وأهل الشام وأهل الحجاز ، فرجح ما اتفق عليه فريقان ، فأخذ به دون ما تفرد به فريق واحد ، وهذا خلاف ما هو ظاهر المذهب في الترجيح عند الحنفية".

* وتحدث الدكتور محمد الدسوقي في أطروحته (الإمام محمد بن الحسن الشيباني وأثره في الفقه الإسلامي) فقال : "وأما كتاب "السير الكبير" فهو عمل فريد في بابه ، لم يؤلف فقيه غير الإمام محمد مثله في موضوعه ، سواء الذين تقدموا عليه أو تأخروا عنه. وليس معنى هذا أن الإمام محمداً اخترع كتابه اختراعاً ، فالمعروف أن بعض الفقهاء الذين تتلمذ لهم محمد تحدثوا عن السير ، كالإمام أبي حنيفة والأوزاعي وأبي يوسف ، ولكن كل ما جاء عن هؤلاء الأئمة في هذا الموضوع كان يدور في نطاق محدود من القضايا ، وكان أشبه بالمحاولات الأولى بالنسبة للبحث الشامل المفصل الذي كتبه الإمام محمد ، فاستحق أن يكون - عن جدارة - رائد التفكير في القانون الدولي في العالم كله.

لقد استقى الإمام محمد مادة كتابه من الآثار والأخبار من علماء عصره فقهاء ومحدثين ، وكانت هذه المادة الأساس الذي أقام عليه محمد عمله المبتكر الرائع الذي

يشهد له بغزارة العلم وعمق التفكير ، وشمول النظرة ، ودقة التفصيل والتبويب والتفريع".

* وهذا كله يعلي من شأن هذا الكتاب وقيمته ، فهو بحق أول كتاب في القانون الدولي العام والخاص في العالم كله ، وهذا يضع تاج فخار على هامة الإمام محمد ، ويجعله رائد القانون الدولي ، قبل أن يتقطن علماء القانون الوضعي إلى أهمية هذا الفرع من القانون والكتابة فيه ، مما جعلهم يلتقون على إنشاء جمعية دولية باسم "جمعية الشيباني للقانون الدولي" في "غوتنجن" بألمانيا ، وقد انتُخب لرئاستها آنذاك (١٩٥٥م) الفقيه المصري الدكتور عبد الحميد بدوي ، وتهدف هذه الجمعية إلى التعريف بالشيباني وإظهار آرائه ونشر مؤلفاته المتعلقة بأحكام القانون الدولي الإسلامي.

ثم أعاد تنظيم هذه الجمعية المستشرق العراقي الصليبي مجيد خدوري ، الذي أخرج كتاب "السير الكبير" في طبعة جديدة ، وهو مأخوذ من كتاب "الأصل" للإمام محمد ، وهو يختلف عن كتاب "السير الكبير" الذي وضعه مستقلاً بهذا الاسم وشرحه السرخسي ، وهذا يسلمنا إلى بيان شروح وطبعات الكتاب واللغات التي نقل إليها.

-٦-

ذكر بعض من كتب عن الإمام محمد بن الحسن أن "السير الكبير" توجد منه نسخ خطية في مكتبات إستانبول في تركيا. ولكن المعروف أنه لا يوجد مستقلاً ، وإنما توجد نسخ له ممزوجة مع شروحه ، ومن ذلك:

شرح الإمام محمد بن أحمد السرخسي (المتوفى سنة ٤٩٥هـ) ، وهذا الشرح له نسخ كثيرة في برلين وفيينا وليدن وباريس وفي مكتبات تركيا : عاشر أفندي ، وعاطف أفندي ، ونور عثمانية... وقد ذكر أماكن وجوده فيها المستشرق بروكلمان في كتابه "تاريخ الأدب العربي" (٢٥٥/٣) من الترجمة العربية.

وقد طبع هذا الشرح في حيدر آباد في الهند عام (١٩٣٦م) ويقع في أربع مجلدات. كما نشرته جامعة الدول العربية (معهد المخطوطات) بالقاهرة ما بين عامي (١٩٧١-١٩٧٢م) بتحقيق صلاح الدين المنجد للأجزاء الثلاثة الأولى ، ثم أكمل بتحقيق الجزئين الرابع والخامس ، فاكتمل في خمسة أجزاء ضخمة ، ثم صُورت عنها طبعة جديدة.

وقامت جامعة القاهرة بإخراج طبعة أخرى محققة له ، عام (١٩٥٨م) ، فصدر عن مطبعتها الجزء الأول فقط وقد كتب التمهيد والتعليقات الشيخ محمد أبو زهرة وحقق النصوص ووضع فهرسه مصطفى زيد ، ولم يكتمل هذا المشروع للجامعة.

وللسير الكبير شرح آخر بعنوان "التيسير على السير الكبير" بقلم محمد المنيب العينتابي ، ومنه نسخة خطية بمكتبة عارف حكمة بالمدينة النبوية. وقد ترجم شرح السرخسي وأصله إلى لغات أخرى ، فقام الشيخ محمد المنيب العينتابي بترجمته إلى اللغة التركية في عهد السلطان محمود خان العثماني ؛ ليكون مصدراً من مصادر معرفة أحكام الجهاد في الإسلام ، وليسهل على قواد الجيش والمجاهدين في الدولة معرفة هذه الأحكام في الدولة العثمانية. وصدرت هذه الترجمة عام (١٢٤١هـ) في إستانبول ، وتقع في مجلدين اثنين. وترجمته منظمة اليونسكو إلى اللغة الفرنسية ، ونقل إليها جزءاً منه المستشرق "دي كرروي" ونشره في جريدة آسية، في الأعوام (١٨٥١ ، ١٨٥٢ ، ١٨٥٣م).

-٧-

وقد لا يساعدنا المقام على أن نعرض بالتفصيل لكل أبواب الكتاب بأجزائه الخمسة ، ولا تقديم دراسة وافية عنها ، فحسبنا أن نشير إلى عدد أبواب كل جزء وأهم محتوياته ، لعل ذلك يكون عاملاً يدفع إلى الاهتمام بهذا الكتاب النفيس ، الذي لا يغني في التعريف به كتابة مقال في مجلة ، مهما يكن الجهد والاستيعاب. يضم الجزء الأول من الكتاب خمسين باباً تنتظم (٥٦٢) مسألة ، تقع بعد المقدمة في (٣٧٠) صفحة ، يليها فهارس للأحاديث والأعلام والأماكن والاستدراكات والتصويبات.

ومن الأبواب التي يشتمل عليها هذا الجزء : فضيلة الرباط في سبيل الله ، الإمارة ووصايا الأمراء ، مبعث السرايا ، الرايات والألوية ، القتال في الأشهر الحرم ، السلاح والفروسية ، الحرب وكيف يعبأ لها ، من أسلم في دار الحرب ، أموال المعاهدين ، الجهاد مع الأمراء ، الخمس والصدقة ، ما يجب من طاعة ولي الأمر وما لا يجب ، قتال النساء مع الرجال وشهودهن الحرب ، سجدة الشكر وصلاة الخوف ، الأمان وفيه بحوث كثيرة.

ويقع الجزء الثاني في (٨١٨) صفحة يليها فهارس متنوعة كالتالي سبقت الإشارة إليها ، وهو يضم الأبواب من (٥١-٩٠) وتشتمل على المسائل من (٥٦٣-١٤٦٦) ، وفيه تنمة أبواب الأمان المتنوعة الشاملة لشروط الأمان وأركانه ومن يعقده ، والحديث عن الرسل (لسفراء) والمستأمنين والحكم في أهل الحرب ، ثم أبواب الأنفال ، مما كان خالصاً للرسول صلى الله عليه وسلم-، والأنفل في دار الحرب، وما يبطل فيه النفل وما لا يبطل ، والسلب والنفل لأهل الذمة والعبيد ، والاستثناء فيه ، وغير ذلك مما يتصل بهذه المباحث المهمة في سياسة المسلمين الحربية.

وأما الجزء الثالث فيقع في (٣١٥) صفحة ويتضمن الأبواب (٩١-١١٣) ، وفيه تنمة أبواب الأنفال والسهمان للخليل وغيرها في دار الإسلام ودار الحرب ، ودخول المسلمين دار الحرب ، والغنيمة ، وكيفية قسمة الغنيمة وبيان من يستحقها، وقسمة الخمس والغنائم.. الخ.

ويبحث الجزء الرابع في الأبواب (١١٤-١٥٩) بمسائل كثيرة متنوعة ، داخل الأبواب عن : الأسارى والحكم فيهم ، والتجار الذين يدخلون دار الحرب ، وما جاء في الخيانة في الغنيمة ، والسبايا والنفقة عليهم والعدة ، وهدية أهل الحرب ، وما يكون إحراراً للغنيمة وما لا يكون ، ثم ما يصيبه الأسراء والذين أسلموا من دار الحرب ، والمستأمنين يأخذون أموال أهل الحرب ، وما يحرزه المشركون ويظهرون عليه من أموال المسلمين ، والفداء ، والاستعانة بأهل الشرك ، وما يكره إدخاله دار الحرب وما لا يكره ، وما قتله من أهل الحرب وما لا يكره وكيفية سياسة الحرب بما فيها من قواعد إسلامية رائعة... الخ.

وينتهي هذا السفر النفيس بالجزء الخامس الذي يقع في حوالي (٦٥٠) صفحة تضم الأبواب (١٦٠-٢١٨) وفيها المسائل من (٣٣٦١-٤٥٧٢) وهو يتضمن أبواباً مهمة مثل : أبواب المواعدة، نكاح أهل الحرب، إثبات النسب من أهل الحرب ومن السبايا ، الحدود في دار الحرب ، ما يجب من النصر للمستأمنين وأهل الذمة ، معاملة المسلم المستأمن مع أهل الحرب في دار الحرب ، مواريث القتلى ، باب الأسير والمفقود ، باب المرتد في دار الحرب وما يتعلق بالمرتدين من أحكام مختلفة ، العين (الجاسوس) ، ما يختلف أهل الحرب وأهل الذمة في الشهادات والوصايا ، من أسلم على شيء فهو له ، الحبس في سبيل الله ، الوصية بالمال في سبيل الله ، باب العشور في أهل الحرب ، باب الجزية ، الخمس من المعدن والركاز يصاب في دار الحرب ، ما يصدق فيه المسلم على إسلام الكافر ، الدعاء إلى الإسلام ، باب الاستبراء ، خروج العبد بأمان من دار الحرب ، العبد يعتق بالإسلام أو لا يعتق ؟.

-٨-

وإذا أردنا أن نوجز ما في الكتاب باختصار شديد ، نقول : إنه يضع أسس العلاقات الدولية في حال السلم والحرب ، فيبين معنى السير والجهاد ، وأهمية الجهاد وغايته ، ويحدد علاقة أهل الذمة بالمسلمين ، وما يخصهم من أحكام ، وينظم حالة السلم ، ويضع أسس التنظيم والعلاقات في حال الحرب مبيناً مشروعية الجهاد ، وإقليم الدولة ومدى سريان النصوص القانونية فيها من حيث الزمان والمكان ، وسياسة الحرب في الإسلام وتحديد المقاتلين ، وبدء الدعوة للحريين قبل الحرب ، وما يتبع ذلك من آثار في الأموال والأشخاص ، كما يحدد العلاقة مع المحايدين ،

وينظم حال الحياد ، ويفصل أحكام المعاهدات والصلح والمستأمنين... وغير ذلك مما يبحثه اليوم علماء القانون الدولي.

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نذكر نماذج مما كتبه الإمام محمد بن الحسن في هذا الموضوع ، وما علق عليه وشرحه شمس الأئمة السرخسي ، كما أن ذلك لا يغنينا عن الرجوع إلى هذا الكتاب القيم الممتع لدراسته دراسة متأنية جادة ، للاطلاع على أثر نفيس من أقدم ما كُتب في الفقه الإسلامي بعامة وفي فقه المعاملات أو العلاقات الدولية بخاصة ، لبيان مدى ما بذل أسلافنا - رحمهم الله - من جهد بالغ في بيان أحكام هذه الشريعة التي جعلها الله - تعالى - منهجاً لحياتنا ، وسبباً لعزتنا ومكانتنا.

- ٩ -

ومع أن بعض المهتمين بنشر الثقافة الإسلامية وكتب السلف بذلوا جهوداً طيبة في نشر كثير من الكنوز الفقهية ، إلا أن المجال لا يزال متسعاً لبذل جهود أكثر ، وخاصة في مجال إخراج تراث الإمام محمد بعامة ، وكتابه "السير الكبير" بخاصة ، وما أجدد هذا الكتاب أن ينشر نشرة ثانية تضيف إلى ما فيه من تحقيق ومقابلة للنصوص تخريجاً للأحاديث والآثار الكثيرة التي استشهد بها المصنف والشارح - رحمهما الله - وعمل فهارس موضوعية تساعد على الإفادة من الكتاب.

- ١٠ -

وفي ختام هذه الكلمة التعريفية بالكاتب وبالكتاب ، أشير إلى بعض المراجع التي ترجمت للإمام محمد ودرست كتابه ، وقد أفدت منها في هذه المقالة السريعة ، وهذه أهمها :

- الآثار ، لمحمد بن الحسن الشيباني ، ومعه الإيثار برجال الآثار للحافظ ابن حجر العسقلاني ، (طبع كراتشي).
- أخبار أبي حنيفة وأصحابه للصيمري (مصورة عن طبعة الهند).
- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ، لابن عبد البر (بيروت).
- بلوغ الأمان في سير الإمام محمد بن الحسن الشيباني (طبع مصر).
- تاريخ الأدب العربي ، لبروكلمان. (دار المعارف).
- تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي. (بيروت).
- الجامع الصغير للإمام محمد مع النافع الكبير ، للكنوي (طبع باكستان).
- الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، للقرشي (طبع الحلبي بمصر).
- شرح السير الكبير للسرخسي (طبعة جامعة القاهرة ، وطبعة معهد المخطوطات).
- الشرع الدولي في الإسلام ، للدكتور نجيب أرنازي. (طبعة دمشق).
- طبقات ابن سعد (دار صادر).
- المبسوط للسرخسي (مصورة عن الطبعة الأولى المصرية).

- المحبّر ، لابن حبيب (بيروت ، مصورة عن طبعة الهند).
- محمد بن الحسن الشيباني وأثره في الفقه الإسلامي للدكتور محمد الدسوقي (طبع قطر).
- مناقب أبي حنيفة وصاحبيه ، للإمام الذهبي ، نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية (طبع القاهرة).
- منهج الإسلام في الحرب والسلام ، عثمان جمعة ضميرية (دار الأرقم ، الكويت).
- الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، للدكتور محمد حميد الله.

لم أعط زمام قلبي لأحد
حللت العقدة في وجه العمل بنفسي
اعتمدت على غير الله مرة
فسقطت من مقامي منّي مرة
محمد إقبال

خواطر في الدعوة الحد الأدنى

محمد العبد

إذا كان واقع المسلمين في هذه الأيام يضطرهم للمطالبة بالحد الأدنى من التعاون والتنسيق، خوفاً من البديل وهو التشهير والتمزيق، وإذا تحقق هذا التعاون اعتبر من المكاسب التي يجب المحافظة عليها والتمسك بها ، ويقولون. هذا هو الواقع ، ويجب أن نعترف به ، ولا نكون مكابرين خياليين نسرح بالأحلام.

إذا كان هذا هو الواقع فنحن نوافقهم ولكن بشرط أن يكون هذا الشعار مؤقتاً ؛ لأن أوضاع المسلمين فعلاً تحتاج إلى بداية مثل هذه ، ولكن الذي نخشاه وتخوفه هو أن يرضوا بهذا الواقع ، ويستمر هذا الشعار فترة طويلة فتموت الهمم ، وتسترخي العزائم ، ويستمرئ المسلمون هذه الحالة فلا يقومون بالأعمال العظيمة المطلوبة منهم في هذا العصر بالذات ، فنحن نمر بفترات حرجة لا نحتاج إلى التعاون والتنسيق بل إلى الانصهار في عمل كبير يعيد للمسلم عزته وكرامته، ويشعره بالثقة المفقودة، يعيد إليه الأمل والرجاء ، إننا نحتاج إلى إنكار للذات بالدرجة الأولى ، فهو العقبة الكؤود كما يظهر لي ، وتأتي الخطوة التالية بالعمل الدؤوب الذي لا يعرف الراحة، وإعمال الفكر في مستقبل المسلمين والإسلام، والطرق الصحيحة التي توحد ولا تفرق.

إن الساعات الحاسمة في التاريخ هي الساعات التي تتحول فيها الأمة كلها إلى (ورشة عمل) ، كلُّ له مكانه وكل له مكانته ، يشعر كل فرد أنه يشارك في البناء بل إنه ضروري لهذا البناء ، هكذا قام المجتمع الإسلامي الأول عندما شارك المسلمون كلهم في بناء المسجد بمن فيهم قائد هذا المجتمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وعندما استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين وتنازلوا عن شطر أموالهم ، ونفذوا هذا عملياً ولم يكتفوا بالأدبيات والكلام عن الأخوة الإسلامية أو (يجب علينا أن نبني مسجداً!).

وإذا كنا نتكلم عن الحد الأدنى فإن الغربيين قد انتهوا من بحث أمورهم الكبيرة ، أمورهم الاستراتيجية وفي اجتماعاتهم الآن يناقشون المشاكل الصغيرة التي لا تزال عالقة مثل مشكلة (الزبدة) كيف تصدر وتستورد ، وكيف يصرفون الفائض منها.

وإحياء الأمة ودعوتها إلى استئناف دورها الخيري لا يتأتى إلا بأعمال كبيرة ، وإن الحد الأدنى إذا استمر لا ينتج إلا الضعف ، الذي يستطيع العيش طويلاً ، ولكنه يبقى ضعفاً ، وأخشى أن يسري هذا الداء حتى إلى عبادتنا وأعمالنا فلا نقوم إلا بالحد الأدنى من المطلوب ، وتمر السنون دون أن نحقق عملاً كبيراً يرضي الله ويغيظ أعداء الإسلام ويشفي صدور قوم مؤمنين. لا شك أن الخطوة الأولى هي التعاون الصادق، ولكن كم نتمنى أن يتلو هذه الخطوة خطوات.

نموذج اتخاذ القرار

ف. فروم (١)

عرض وتحليل : طارق عبد الحليم

مقدمة :

- يعتمد نجاح قيادة ما في أداء مهامها الموكولة إليها على عدة عناصر متداخلة ، تتفاعل لتحقيق الهدف الذي ينشده القائمون على هذا العمل ، من تلك العناصر :
- ١- كفاءة (٢) القيادة وفعاليتها (٣) في الأداء والمتابعة.
 - ٢ - كفاءة الأتباع وفعاليتهم في التلقي والأداء.
 - ٣ - درجة الثقة المتبادلة بين الطرفين.
 - ٤ - المناسبة (الزمانية والمكانية) للمهام المطلوبة في المواقف المختلفة.
 - ٥- الإمكانيات المتاحة اللازمة لأداء الحد الأدنى على أقل تقدير.

ويندرج تحت كل عنصر من تلك العناصر المذكورة عدد من العوامل الفرعية التي تؤثر على الأداء الناجح الفعال لكل من القيادة من جهة ، والمجموعة العاملة من جهة أخرى ، فعلى سبيل المثال ، تتحدد كفاءة الأتباع حسب (المستوى العلمي - درجة التخصص- الصفات الشخصية كدرجة الانضباط.. - درجة التألف بيد المجموعة - الخلفية النفسية والاجتماعية... الخ).

وحديثنا في هذا البحث يخص أحد مركبات العنصر الأول ، أعني "كفاءة القيادة" وبالتحديد عملية " اتخاذ القرار " ومدى الحاجة إلى المشاركة فيه بين القيادة والأتباع في المواقف المختلفة من خلال نموذج "اتخاذ القرار" الذي قدمه للمرة الأولى العالم الأمريكي فيكتور فروم في مجال علم المنظمات والإدارة في ربيع عام ١٩٧٣ ، ثم طورها بعد ذلك بمعاونة آرثر بيتون. والنموذج يصلح للتطبيق في مستويات الإدارة كافة بواسطة المسؤول سواء كان القائد مع بقية أفراد مجلس الإدارة مثلاً ، أو كان قائداً تنفيذياً مع أفراد مجموعته العاملة.

النظرية :

تقوم تلك النظرية على فرضية أن "مدى الحاجة إلى المشاركة بين القيادة والأتباع في اتخاذ قرار ما تتحدد حسب الموقف ومتغيراته المختلفة ، والتي تملأ بالتالي نمطاً قيادياً محدداً يؤدي إلى أفضل النتائج ويعتمد النموذج المقدم على ثلاث قواعد يتم خلالها اختيار ذلك النمط به وهي :

أولاً : الأسس التي يتم عليها تحديد متغيرات الموقف.

ثانياً : الأنماط القيادية المختلفة.

ثالثاً : متغيرات الموقف.

وعلى أساس التفاعل بين تلك العوامل الثلاثة يمكن للقيادة تحديد النمط المطلوب في هذا الموقف المحدد ، وسنتناول باختصار ذكر تلك القواعد.

أولاً : أسس اختيار وتعيين متغيرات الموقف :

- نوعية المشكلة المراد البت فيها (كمية أم كيفية ؟).
- درجة اطلاع القائد وفهمه للمشكلة القائمة نظرياً وعملياً.
- درجة اطلاع الأتباع وفهمهم للمشكلة القائمة.
- درجة إمكانية الحصول على معلومات من خارج المجموعة (بشأن المشكلة).
- تقبل الأفراد لقرارات القيادة وطاعتهم لها.
- درجة الإحساس بالولاء والانتماء للشركة أو المجموعة.
- درجة التعايش والتآلف بين الأتباع.

وتهدف هذه الأسس بجملتها إلى المحافظة على عدة مبادئ منها : (مبدأ التآلف) ، (مبدأ التخصص) ، (مبدأ الحرص على الكيف) ، وعلى أساسها يتم اختيار عدد من الأسئلة التي تمثل متغيرات الموقف الراهن.

ثانياً : أنماط القيادة :

تحدد الأنماط القيادية بثلاثة أنماط (١، ٢، ٣)، يندرج تحتها خمسة أشكال من التصرفات القيادية المختلفة (أ ، ب ، ج ، د ، هـ).

- ١ - قيادة موجهة متحكمة (Autocratic):
أ- تتخذ القرار بنفسك وحسب معلوماتك الخاصة..
ب - تتخذ القرار بنفسك بعد جمع المعلومات اللازمة من أتباعك.
- ٢ - قيادة مشاورة (Consultative):
ج - تشاور أتباعك بطريقة فردية لمعرفة رأيهم ومعلوماتهم ثم تصدر قرارك بنفسك.
د - تشاور أتباعك بشكل جماعي لاتخاذ القرار بنفسك بعد المشاورة.
- ٣ - قيادة مشاركة (Participation):
- تصدر القرار بشكل جماعي بعد المشاورة وأخذ الأصوات.

ثالثاً - متغيرات الموقف :

- وفي عشرة أسئلة بنيت على الأسس التي قدمناها في القاعدة الأولى :
- ١ - في حالة تقبل الأفراد للقرار الفردي ، هل تتأثر النتائج ذاتها بطريقة اتخاذ القرار ؟
 - ٢ - هل لدى القائد العلم الكافي لاتخاذ قرار كفاء ؟
 - ٣ - هل تتوفر لدى الأتباع معلومات (زائدة على معلومات القيادة) تؤدي إلى تحسين الأداء ؟
 - ٤ - هل يعرف القائد نوعية المعلومات المطلوبة ، وممن يحصل عليها ، وكيفية جمعها ؟
 - ٥ - هل من الضروري أن تتوفر معلومات إضافية لصالح القرار داخل حيز المجموعة ككل ؟
 - ٦ - هل من الممكن جمع معلومات إضافية من مصادر خارجية قبل اتخاذ القرار ؟
 - ٧ - هل تقبل القرار من الأتباع مهم وحاسم لضمان حسن التطبيق ؟
 - ٨ - إذا كان من المحتمل اتخاذ القرار بطريقة فردية (بنفسك) هل أنت متأكد من تقبل الأتباع له ؟
 - ٩ - هل يمكن الوثوق بقدرة الأتباع على اتخاذ قرارات مهمة تتلاءم وأهداف العمل بشكل عام ؟
 - ١٠ - هل من المحتمل حدوث خلافات بين الأتباع على نوعية الحل ؟

الطريقة :

يمكن اختيار النمط الأمثل للتصرف القيادي (وبالتالي تحديد الأنماط الممكنة في حالة القرارات طويلة المدى) في موقف ما بأن يقوم القائد المسؤول بالإجابة عن الأسئلة السابقة بادئاً بالسؤال الأول... وحسب الإجابة بنعم أو لا ينتقل إلى السؤال التالي حتى يصل - عن طريق الشكل المرفق على هيئة شجرة - ليحدد في النهاية النمط المناسب لاتخاذ القرار.

فمثلاً : في حالة تقبل الأفراد للقرار.

- ولكن النتائج ذاتها تتأثر بطريقة اتخاذ القرار (الفردية أو الجماعية) السؤال رقم

(١) - "نعم" ينتقل المسؤول إلى السؤال رقم (٢).

- أما إذا كانت النتائج لا تتأثر بطريقة اتخاذ القرار السؤال - "لا" ينتقل المسؤول إلى السؤال رقم (٧) مباشرة.

وعند الانتقال إلى السؤال رقم (٧) :

- هل تقبل الأفراد للقرار ورضاهم به مهم وحاسم لضمان حسن التطبيق ؟

- فإن كانت الإجابة بنعم... ينتقل المسؤول إلى السؤال رقم (٨).

- وإذا كانت الإجابة لا ؛ يكون النمط المناسب هو "اتخذ القرار بنفسك وبمعلوماتك" في حالة القرار ذي التأثير قصير المدى... أو الأنماط ب ، ج ، د ، هـ على التوالي إذا كان القرار ذا تأثير طويل المدى وهكذا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن القرارات ذات التأثير المحدد (قصير المدى) تتحدد بالنمط المذكور أولاً في النموذج... ولكن حسب درجة نضوج الأتباع ومع مرور

الزمن فإنه من المناسب العدول إلى الأنماط المجاورة على التوالي (بين

القوسين) خاصة فيما يخص القرارات ذات التأثير المستمر (طويل المدى).

مثال :

وحتى يسهل الأمر على القارئ ، نعتبر مثلاً يعرض طريقة استخدام النموذج للوصول إلى السلوك القيادي الأمثل.

١- لنفترض أن مديراً لإحدى الإدارات بشركة ما ، يعمل تحت إمرته عشرة من العاملين من ذوي الخبرة المناسبة.

٢ - يتمتع العاملون العشرة بثقة المدير بكفاءتهم وحسب أدائهم للعمل بشكل متكافئ.

٣ - أرسلت الإدارة العامة للشركة تطلب ترشيح ثلاثة أفراد من تلك الإدارة لأداء مهمة بالخارج لفترة من الزمان.

٤ - يعتبر العاملون ذلك السفر أمراً غير مرغوب فيه ، كما يعلم المدير ذلك حيث يحتاج السفر لتغييرات جذرية في أوضاع الحياة الخاصة للمرشح.

أ - أيتخذ القرار بمفرده ويحدد من يقوم بالمهمة ؟.

ب - أم يشاور العاملين معه فيمن يود الذهاب ؟.

- ج - أم يجمع العاملين ويتركهم يقبلون الأمر على وجوهه فيما بينهم لتحديد الأسماء المرشحة؟
وللوصول إلى القرار المناسب ، نرجع إلى الشكل المرفق لشجرة القرار ، والأسئلة العشرة.
- السؤال الأول : هل تتوقف النتائج (أداء العمل بالخارج) على طريقة اتخاذ القرار ؟
- والجواب : لا ، حيث إن العاملين العشرة متساوون في الكفاءة ، والخبرة ، ويتمتعون بثقة الإدارة بقدرتهم على حسن الأداء.
- انتقل إلى السؤال رقم (٧).
- السؤال السابع : هل تقبل العاملين المرشحين للقرار مهم وحاسم في حسن التطبيق للعمل والقرار ؟
- والجواب : نعم ، حيث إن العامل حين يؤدي أمراً لا يرغب فيه - حتى مع كفاءته وقدرته وخبرته - لا يكون على المستوى المطلوب من العمل.
- انتقل إلى السؤال رقم (٨).
- السؤال الثامن : في حالة اتخاذ القرار بشكل فردي ، هل الإدارة متأكدة من تقبل العاملين لذلك القرار دون معارضة ؟
- والجواب : لا ، حيث إن القرار بالسفر سيكون له أثر في الحياة الشخصية للمرشح ، والاحتمال الأكبر أن يلقي الترشيح معارضة ، ما لم تكن الموافقة مسبقة عليه.
- وبناءً على ذلك التحليل نصل إلى النمط (هـ) والذي يعني : "أن يعقد المدير اجتماعاً حيث يعرض المسألة على العاملين معه ، ويطرح الترشيح للمناقشة حتى يصل إلى اتفاق على الأسماء الثلاثة.

التعليق :

تعتبر هذه المحاولة التي قدمها "فروم" لبناء القرار على طريقة أكثر عقلية وتحديداً ودقة من باب النماذج (Model) التي يمكن احتذاؤها.

ولا يزعم المؤلف - كما لا نزع من نحن - أنها أنضج ما يمكن تقديمه في هذا المجال ، بل ولا أنها تغطي المواقف والاحتمالات كافة التي يمكن أن تواجهها قيادة ما.

ولكن الجديد الذي تقدمه النظرية هو تلك الوسيلة العملية التي يمكن بواسطتها أن يضع المسؤول المتغيرات كافة التي يواجهها على الورق ليكون اختياره أكثر تحديداً ودقة ، دون أن يهمل عاملاً ما ، أو أن يبني قراره على مجرد النتائج التي يهتدي إليها بعقله بعد تقلب الأمر بينه وبين نفسه مما قد لا يستغرق منه سوى لحظات قليلة ، فتارة يشاور من معه ، في حين أن المشاورة قد لا تكون في صالح القرار أو

الجماعة ككل ، وتارات يتخطى الجميع ليتخذ قراره بنفسه ، في حين هو أقل علماً بالمشكلة من بعض أتباعه الذين تتوفر لديهم المعلومات الكافية والتخصص الدقيق. ومما لا يخفى أنه ليس من المعقول المشاورة في كل أمر صغير أو كبير ، كما أنه ليس من المشروع الاستقلال بالرأي والاستبداد بالقرار على طول الطريق ، ولنا في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسوة حسنة في ذلك الأمر وحدوده حين أخذ بمشورة سعد بن معاذ في بناء العريش في غزوة بدر من حيث هو أهل أعلم وثقة بهذه الأمور ، كما استشار -صلى الله عليه وسلم- الصحابة والأنصار على وجه التحديد قبل الإقدام على الحرب في بدر ، حيث إن موافقتهم كان لها وزن خاص في النتائج المرتقبة ، بينما قرر -صلى الله عليه وسلم- بنفسه في حادثة نعيم بن مسعود وإرساله ليخذل عن المسلمين إبان غزوة الخندق.

وما يعيننا في هذا الموضوع أن نشير إلى أن الأسس التي يقوم عليها تحديد متغيرات الموقف - والتي قدمناها في القاعدة الأولى - ومتغيرات الموقف نفسها (والتي قدمناها في الأسئلة العشرة السابقة) تخضع للتغيير والتبديل حسب نوعية العمل وحسب البيئة التي يراد تطبيق النموذج عليها ، بحيث تشمل في كل حالة ما يناسبها ، وما يغطي احتياجات القيادة ، وقدرات الأتباع والمواقف المختلفة المحتملة.

ولا يفوتنا أن نوجه نقداً حاسماً لذلك النموذج من حيث إهماله - بشكل يكاد يكون تاماً - الحالة النفسية والدوافع الداخلية التي قد يصدر عنها القائد والأتباع على حد سواء في اتخاذ القرارات. وهو - وإن وضع بين الأسس التي يحدد عن طريقها متغيرات الموقف مبدأ "التآلف والتجانس" بين القيادة والأتباع من جهة ، وبين الأتباع بعضهم البعض من جهة أخرى ، إلا أن ذلك لا يعفي من ضرورة اعتبار الدوافع الذاتية الشخصية التي توجه الأفراد حين اتخاذ قرار ما ، والذي قد يتخلى في أثره الجانب العقلي الميكانيكي الذي عالجه المؤلف في نظريته ، بل ويكاد يتحكم لحد كبير في عملية اتخاذ القرارات داخل المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية.

فمثلاً : قد تقرر قيادة ما الاستغناء عن خدمات أحد أفرادها ، نظراً لعداء شخصي أو حالة نفسية محددة دون الدخول في تفاصيل الأسباب والدوافع ولكن قد يقرر فرد ما الاستقالة من عمله والانفصال عنه لدوافع خاصة قد لا يصرح بها في غالب الأحوال. وهو الوضع الذي لم يعالجه "فروم" في نموذجهم ولم يحسب له حساباً في أسسه وقواعده وأسئلته على الرغم من أهميته القصوى والحاسمة.

الهوامش :

- 1- VROOM,H.V. (A NEW Look AT MANAGERIAL DECISION MAKING) Organizational Dynamics, 1973, VOL 2,P 66-80.

وكذلك

VROOM,V&JAGO,A(On the Validity of the Vroom and Yetton Model)Journal of Applied Psychology, 1978, voL 63, P 151-162.

2 - Competence

3 - Effectiveness

يحسب أن ماله أخذه

د.مصطفى السيد

ما أشقى القيم عندما يصبح المال وحده لحمتها وسداها ، وأنعس بالأمم إذا بات المال عندها معيار التفاضل ومنهاج التعامل!؛ به ترفع وتضع، وفيه تقدم وتؤخر، وله تسعى وتحفد.

وكم تؤذي السمع، وتستدعي الازدراء قالة أقوام: "فلان رجل"، وإذا رحمت تسائل هؤلاء الناس : فيم

استرسل فيم فلان وجد؟؛ أجابوا - وبئس الجواب - بثروته المالية ومكانته الاقتصادية!

وحرصاً على إثراء رصيد المسلمين بالمعرفة التاريخية، وعمارة أرواحهم بأصل القيم، تعاقب القصص القرآني عن الأمم السالفة ليكون من الروافد الفكرية لمكونات الشخصية الإسلامية.

ولقد ثبت عن الإمام أحمد -رحمه الله- حبه لقصص موسى في القرآن الكريم ، والتي توزعت فصولها هذه في كثير من آيات القرآن تحكي جهاد هذا الرسول الكريم - صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء - وكيف اصطدم بالطغيان السياسي الذي تمثله دولة فرعون ومواجهة لبذور وجذور الرأسمالية القارونية - التي كان قارون صنمها البارز ووثنها الشامخ.

وما ذكر في القرآن من قصة قارون مع قومه تتمثل في هذه الآيات من رقم ٧٦ إلى رقم ٨٢ من سورة القصص.

قصة متكاملة العناصر؛ فزمن القصص - فترة رسالة موسى -صلى الله عليه وسلم-. والأماكن التي شهدت الدعوة مكانها.

ووقائع القصة - وإن انتهت زمناً - فهي مستمرة حياة وإيحاءً، مادام النموذج الذي عرضت له القصة قائماً في عالم الناس.

وقارون يقوم بدور البطولة بين شخصياتها المتمثلة بقومه عموماً ، ثم يتحدد هذا العموم بفئتين:

الأولى : الدنيويون.

الثانية : أولو العلم.

وموضوع الصراع هو المال - مصدراً وهدفاً ومصرفاً - وتبدأ القصة معرّفة بقارون هذه الشخصية البائسة التي تعايش ربيع الزمن - وجود النبوة - ولكنها في شغل عنها بالمال جمعاً وكنزاً ، ثم تفتح الآيات أعيننا على الأخطار التي تنتج عن رأسمالية فرد ، فما تكون عليه هذه المخاطر إذا كانت هذه الرأسمالية نظام حياة وأسلوب حكم؟!:

وأولى هذه المخاطر الظلم : ((فَبَغَى عَلَيْهِمْ)) فالمُتَمِّمُ بالمال ، والصبّ بجمعه لا يهتم إلا بما يزيد هذا المال رقماً دون مبالاة بظلم مؤلم أو بغي مؤذٍ. في ظل هذا الوضع تهان إنسانية الإنسان ، ويكون التعامل معه كالتعامل مع الأشياء. والخطر الثاني : الفرح : ((إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)) ، ، ويبدو أنه قد لازمته حتى صار خُلُقاً له أو كما يقول أهل النحو (صفة مشبهة أو صيغة مبالغة) فبلغ به حد الأثرة والبطر ، كما يقول القرطبي أو بلغ الحد الذي يُنسي المنعم بالمال كما يقول صاحب "الظلال".

والخطر الثالث : التوجه الكلي إلى الدنيا وحدها ، وهذا ما يستنبط بمفهوم المخالفة من قوله - تعالى - : ((وَأَبْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)) وكما لا يظن أن ذلك دعوة إلى مقاطعة الدنيا أتبع (والله أعلم) لقوله : ((وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)) وابتغاء وجه الله بالعمل محض الإيمان ، فلا يذل المرء للمخلوقين أو يصبح تحت رحمة أهوائهم إذا اتخذ وجوههم قبلة تحقيقاً لتوحد حب الدنيا في قلبه. وبعد إشباع شهوة التسلط القاروني بالبغي، وإتراعها بالفرح وما في ذلك من مكسب إعلامي يجعل من صاحبه حديث الصالونات ومحتكراً للصفحة الاجتماعية في الجرائد والمجلات - بعد ذلك تمضي بنا الآيات إلى الخطر الرابع وهو الفساد في الأرض : ((وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)) ، وكلمة الفساد ينطوي في أحشائها - وينضوي تحت راياتها - شرور شتى، وخبائث عدة ؛ لأن القارونية لا مكان في معجمها المادي للأخلاق ، بل لا ترى بأساً أن يكون في مقتل الأخلاق دخل مدار الربح كما في عوائد الربا والفوائد كما في دخول الميسر والخمر والدخان... الخ. والأخطار الأربعة السابقة نتيجة منطقية لرأسمالية قارون التي تدين بالاحتمية المادية - وهذه نقطة تلاق

مع الشيوعية - التي تجدد قدرة الله في الإعطاء والمنع ، والفقر والغنى ، وترد ذلك إلى سلطان العقل وثمره العمل ، وتبجح قارون : ((إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي)) - يمثل الأبوة الروحية لكل منزع مادي ، فهو كما قال أحد المفسرين : "تَنَفَّجَ بِالْعِلْمِ وتَعْظَمَ بِهِ".

ومادام قارون يعتقد ألا فضل لله في إيجاد هذا المال فليس له - بالتالي - حكم في مصاريفه وإنفاقه.

ولكن الآيات ردت على المادية القارونية بأن المادية التاريخية لم تعصم أهلها - بالرغم مما في يدها
 من علم ومال - : ((أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً
 وَأَكْثَرُ جَمْعًا)) وما على القوارين إلا التأمل في مصائر الثراء وفعائل المال بأصحابه
 ؛ "إذ لو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم" كما يقول القرطبي.
 وكان هذه القارونية قد أخذت على نفسها الميثاق ألا تبقى عيباً من عيوب الثراء الذي
 لم يؤسس على تقوى إلا وكشفتها ، ها هي الآيات تعرض لنا المنظر الأخير للإفلاس
 القيمي عند قارون الذي لم يجد ما يدل به على حضوره ثرياً إلا خروجه في زينته
 (كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد) التي لم يكن الحاضر فيها منه إلا مظاهرها المادية
 بعد أن فارقتنا إنسانيته أو فارقتنا في سعير المظالم وسعار الشهوات وسكرة الفرح.
 ولقد نقلت الآيات قارون من الجريمة الفردية إلى الجريمة الاجتماعية أو بلغة الأدب
 - من الشخص إلى المصطلح ومن الحدث إلى الرمز (١) لتصبح القارونية عباءة لكل
 قارون معاصر أو ثري جحود.

لم يكد قارون يفرغ من عرض ثروته ، واستعراض زينته إلا وقد أشعل في قلوب
 الدنيويين مشاعر التلهف وشعائر التأسف ألا يكون لهم مثل هذه الثروة : ((يَا لَيْتَ لَنَا
 مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)) ؛ فجاءت إغاثة اللهفان - شأنها في كل زمان ومكان - من أهل
 العلم الذين حذروا من خطورة النظرة السطحية للأمور ، والتي تريد الدنيا للدنيا ، ثم
 لفت أهل العلم الأنظار إلى ((تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ)) ، فذلكما الأمران هما
 المطلوبان والمحبوبان ثواب الله والإيمان به. وفي ذلك تنبيه للدنيويين على مدار
 التاريخ - وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - أن الثروة قد تدلف فجأة ، ولكن
 ترويض النفس على الإيمان والعمل الصالح منزلة ((وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)).
 وما أن يُنهي أهل العلم كلامهم ؛ حتى تغيب الأرض قارون في ظلماتها - والعطف
 بالفاء - ((فَخَسَفْنَا)) يدل على سرعة الأخذ ، والعقوبة بالخسف مناسبة لسخف
 المعتقد. وهكذا أصبح هذا الثراء بالرشاء أجدر.

وفاجعة النهاية لا تقل في غناها المعنوي عن مأساة البداية ، فهذه الثروة المهائلة تغور
 في أعماق البسيطة بثوان كأن لم تكن : ((فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا
 مُنْظَرِينَ)) [الدخان: ٢٩].

وإذا جاء أمر فإنه يترك كل القوى اللاندة بأهل المال رغبة أو رهبة - عاجزة عن أي
 دور : ((فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ)) ، وبقدر
 ما كان الانتقام فاجعاً لقارون كان مفاجئاً للدنيويين فقد انتزعتهم النهاية من زيف
 أحلامهم ، وسكرة مشاعرهم لتوقفهم على الأخذ الأليم ؛ فيصرخون ((وَيْ)) لتبصر
 البصائر ما عجزت عنه النواظر ، ويدركون ألا علاقة بين الهداية والثراء ؛ فالله :
 ((يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ)).

كما يعترفون بفضل الله عليهم لتدارك رحمته - إياهم - بنصح أولي العلم : ((لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا)) ، كما يخرجون بتجربة ناجحة عن مستقبل الثراء الكافر : ((وَيَكَاَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)) ، والتعبير بالمضارع ((يُفْلِحُ)) يفيد ديمومة الحكم ما وُجدت أطراف القضية (٢).

وإذا كان الفوز في الآخرة هو الفوز ، فالطريق إليه يبدأ في الدنيا بتجنب التجبر : ((لَا يُرِيدُونَ غُلُوبًا)) ، ومجانبة الفساد بكل مضامينه : ((وَلَا فَسَادًا)) ، ولئن قُدر للمبطلين أن يهيمنوا بعض الوقت فلن يتأتى لهم ذلك دائماً أو انتهاءً ؛ لأن : ((الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)) [القصص: ٨٣].

الهوامش :

- ١- قال محمد بن حازم الباهلي - من شعراء العصر العباسي الأول (١٦٠-٢١٥) :
(قارون) عندي في الغنى مُعدم وهمتي ما فوقها مذهب
- وقال الأستاذ عصام العطار - من المعاصرين - :
يا للطفاعة وما أشقى الأنام بهم عاشوا قوارين أو عاشوا فراعينا !

"لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته ؛ فهذا فعل الأرزال ، ولا تكتمه ما يستضر بجعله ؛ فهذا فعل أهل الشر".

الإبداع والتقليد عند مقليد الغرب

محمد حامد الأحمرى

صلة المسلمين بالعالم المعاصر في شتى أنواعها لم تعد مجهولة الآثار، ونتائج هذه الصلة والتأثر بها، ما يتجاوز القدرة على التجاهل، فيعترف به المتجاهلون والغافلون رغماً عنهم فلم يعودوا قادرين على نكران من يصنع ملابسهم وسياراتهم وبعض غذائهم ، ولكنهم في الجانب الآخر ينكرون أن يكون لعالم الاستعمار أثر في شيء من حياتهم الفكرية والسلوكية وهذا الجانب هو ما نقصد الحديث عنه هنا.

لقد اكتسبت الحياة الفكرية في الغرب خبرة طويلة في صراعها مع الدين ، وممرت قرون من الزمن الحاد المتوتر بين الدين ورجاله وبين غيرهم هدمت على أثر ذلك عروش، ودرجت آلاف الرؤوس ، حتى كان للعلمانية النصر وأقامت النظم التي تريدها.

وقد تركز عداء الدين في التعليم والثقافة الشعبية ثم الحكم فيما بعد ذلك.

إن الصراع كان في بدايته علمياً "العلم المادي التطبيقي" وفلسفياً، ثم كان فيما بعد سياسياً، وترابطت هذه العوامل "السياسة" و"العلم" و"الفلسفة" في إنتاج هذا العالم المشهود الذي طارد الدين جهده ولكن الدين لم يغب أبداً عن المعركة حتى في أيامنا هذه والتي يروج أنصار "الليبرالية" أو الاتجاه التحرري من الدين انتصارهم وانهزام عالم الغيب والدين والخرافة أو ما يسمونه "اللامعقول".

وإنه ليجدر بنا لمعرفة مكانة النصرانية الغربية أن نلاحظ الأحزاب الديموقراطية المسيحية في أوروبا ، في ألمانيا ، في إيطاليا ، اليمينيون في فرنسا وما أشارت إليه الانتخابات الفرنسية الأخيرة ، فضائح القساوسة الأخيرة في أمريكا "بيكر"

و"سواجارت" التي كانت معلومة من قبل ولكنها استُخدمت في الوقت المناسب لأسباب عديدة البعض يعد منها إبعاد القساوسة عن الانتخابات والحكم في أمريكا. وقد جاء نشر أكثر فضائحهم بعد أن رشح أحد القساوسة نفسه للانتخابات. ثم الكل يعلم دور البابا الحالي في بولندا - وهو من أصل بولندي - دوره في مظاهرات واحتجاجات العمال في بولندا ، وفاليسا الزعيم العمالي البولندي المعارض للحكم الشيوعي إن هو إلا يد الكنيسة في المعسكر الشيوعي الشرقي ، البابا ينفق وقته في رعاية النصرانية ضد الشيوعية في أمريكا الجنوبية ، وإفريقية وغيرها ، يقود التيار الكاثوليكي المتحجر في لعبة الدين والسياسة الواسعة في عالمهم.

يتضح مما سبق أن الحرب الضروس ضد الدين في أوروبا وأمريكا وغيرها لم تنته بعدُ لصالح العلمانية وهي بالطبع ليست في صالح الكنيسة ، لكن كل منهما مضطر للآخر ، مضطر للحوار والاستفادة والاستغلال ، والغرب - بلا شك - مقدم على عودة للدين لأسباب عديدة ليس هذا موضع تفصيلها لكن من هذه الأسباب الفطرة الدينية التي فطر الله الناس عليها والتي غشى عليها لفترة من الزمن الوهج العلمي والتعلق بالإنتاج الصناعي ، ثم عاد العلم ليأخذ موقعه الصحيح يوماً بعد يوم وما سببه من مادية جافة سئم الناس خشونتها وانفصامها.

وكذلك ازداد اهتمامهم بدراسة ظاهرة الإسلام ، وكثرة البحوث والدراسات حول ذلك ؛ لاستكشاف أفضل الطرق لاحتوائه ، إضافة إلى موجة الشباب النصراني المتدين والتي تخرج في شكل دعاة متنقلين من مدينة إلى أخرى ، وينزلون مساكن الجامعات ، ويقومون الخيام للدعوة إلى الدين النصراني ، ووجدت مجموعات متدينة يرفضون المدنية الحديثة ويرفضون وجود أجهزة التلفزيون في بيوتهم ، ويمنعون أبناءهم من التعليم العام لما يرون في كل هذا من الانحراف عن الدين. وهذه مجموعات جديدة في أمريكا عموماً لا علاقة لها بالأيامش الموجودين في ولاية أوهايو ولا بالمورمون في ولاية يوتا. وهذه قضايا تؤرق الدول الملحدة أو العلمانية ، يؤرقها أن يسيطر الدين ويحكم ، ويؤرقها الفراغ والإلحاد والشيوعية أن تسود ، فهي تحرص على وجود توازن مستمر بين هذه القوى المؤثرة في المجتمع ، وهي ليست قصيرة

التجربة في هذا المضمار ، لقد نضج التعامل العلماني مع الديني منذ ما يزيد عن قرنين من الزمن ، وعرف كيف يسخر الدين للسياسة ، ويركبه فيكون مطية ذلولاً يعرف كيف يتحكم في شموستها ونفورها لتكون طيعة مسالمة أليفة.

هذه التجربة الخطيرة في التاريخ يمكن أن نصنفها على أنها اختراع عظيم جداً يصدر للعالم المتخلف كما تصدر له الملابس الجميلة والسيارات الفخمة وهذا اختراع فخم يقدم للعالم خدمات جليلة في نظرهم أنى لأي جهاز آخر أن يؤديها؟!.

لعل العديد من ضحايا الاستكشاف السابق لا يعلمون بأنهم ضحاياهم ، إنهم يسلمون بأن القلص (الإبل) قد هجرت وجاءت السيارة بديلاً قوياً وذهب البعير من الواجهة ، وقد ارتاح فعلاً فما عاد يرحل بليل ، ولا يتأوه أهة الرجل الحزين. قسم كبير من هذه الجمال ذهب إلى المتاحف الحيوانية ينعم ويرفه للفرجة والرؤية فقط ، ويمكن أن يتنزّه عليه حول الأهرام وغيرها وليكون في عيون الغريب تحفة قد تستحق النظر والإعجاب. ولكنه لا أهمية له ولا دور في حياة الناس.

إن سحب البساط من تحت الدين وتجريده من السلاح أحد الصادات المهمة من هناك إلى بلاد المسلمين ، عكفوا على إنتاجها سنين وليالي وأياماً حتى جاءت جاهزة. والذي نستيقنه أنه لا يمكن لهذه البضاعة أن تعمل عندنا لزمان طويل ، فبلادنا حارة لا تقوى بضاعتهم على مقاومتها سيأكلها الصدأ وتهوي بها الريح في مكان سحيق.

طلائع الوهن والتبعية في بلدان العالم الإسلامي فرخت وتوسعت دائرتها من أفراد ينادى بهم ويشنع عليهم ، إلى ظاهرة اجتماعية تملأ هذه البقاع ويمكن أن نستعير كلمة "طبقة" من مرديها لنقول إن طبقة في عالم المسلمين اليوم تستقر في المدن عاشت في الغرب أو لم تعش ، واعتادت الحياة الغربية وقيمها وأدابها فالحق في بلادهم ما كان حقاً في الغرب ، والباطل في الغرب باطل عندهم. أناس مسلمون غالباً ما يقومون بأداء شعائر الإسلام واحترامه ، ليسوا عملاء للغرب ولا لحكوماته ، قد يكرهون سيطرته وإذلاله للمسلمين ، لكنهم مقهورون في أعماقهم مغلوبون في نفوسهم ، في أرواحهم وهمهم ، راعهم بهرج الغرب ونظمه ورتابة حياته وإشباع رغباته الواسعة ، أعجبوا بحكوماته وديموقراطيته ، انتشوا بهذه الشهوات فعبدوها ، فكل غريب عندهم جليل مقدم وكل شيء من عندهم بدائي وحقير. يتمنون لبلادهم الخير ولكن ليس الذي أراد الله أو رسوله أن يكون خيراً ، إنما الذي علموه أو رأوه خيراً هناك فهو الخير هنا. هذا قطاع من خيرة شباب

الأمة تعلموا ومكانة يغري أوساط الناس وعامتهم إلى تقليده لمكانته الاجتماعية، لشهاداته، لأسلوب حياته الذي سموه تحضراً أو تمدناً ، ولكنه في الحقيقة أجنبي على كل حال.

هذا القطاع المقطوع من قيمه يقود الأمة للهاوية. إنه يؤخرها ، ويعطل مسارها ، ويكبح انطلاقها ، لما أصبح في حياته الفردية من عقد لا حصر لها. والمجتمع الواهن

يخادع هذا القطاع بضعفه ، فيظن هؤلاء أنهم أقوياء وقدوات في ديارهم ، فيزيدون ترفعاً وتعالياً والتعالي عندهم هو الإغراق في التبعية والتقليد للمجتمع الغالب ، وهذه الفئة تقف سداً مانعاً دون نضوج الأمة ووعيها وتقدمها ، فهي ليست عدواً ولا تقف صراحة معه ، وهي فيما تقول بل وتعمل أحياناً - تعادي الغزاة وتحطم وهي تزعم البناء وتبذل كل جهدها لتكون بلادها وحياتها كأولئك وهي لن تكون ، إنها الفئة التي تحدث عنها سارتر في مقدمته لكتاب فرانتز فانون "معذبو الأرض" (١) وهي الفئة التي تحدث عنها أرنولد توينبي ، أما الأول فقال في معرض حديثه عن أسلوب صناعة الفكر الشرقي في الغرب (سارتر يتحدث عن مرحلة الفرد ، ونحن نتحدث عن ظاهرة الجماعة ، وهناك خلاف فيما نكتب عنه وفيما يتحدث عنه سارتر ، غير أن القضية في النهاية واحدة) يقول : "كنا نحضر رؤساء القبائل وأولاد الأشراف والأثرياء والسادة من إفريقية وآسيا ، ونطوف بهم بعض أيام في أمستردام ولندن والنرويج وبلجيكا وباريس؛ ففتغير ملابسهم، ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة ، ويرتدون السترات والسرراويل ، ويتعلمون لغاتنا وأساليب رقصنا وركوب عرباتنا، وكنا ندبر لبعضهم أحياناً زيجة أوربية، نلقنهم أسلوب الحياة بأثاث جديد، وطرز جديدة من الزينة، واستهلاك أوربي جديد وغذاء أوربي، كنا نضع في أعماق قلوبهم الرغبة في أوربة بلادهم، ثم نرسلهم إلى بلادهم. وأي بلاد؟ بلاد كانت أبوابها مغلقة دائماً في وجوهنا ، ولم تكن نجد منفذاً إليها، كنا بالنسبة إليها رجساً ونجساً وجناً. كنا أعداء يخافون منا وكأنهم همج لم يعرفوا بشراً. لكن منذ أن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم ، كنا نصيح من أمستردام أو برلين أو باريس "الإخاء البشري" ؛ فيرتد رجع أصواتنا من أقاصي إفريقية أو الشرق الأوسط أو الأدنى أو الأقصى أو شمال إفريقية ! ، كنا نقول : "ليحل المذهب الإنساني أو دين الإنسانية محل الأديان المختلفة" وكانوا يرددون أصواتنا هذه من أفواههم وحينما نصمت كانوا يصمتون. ثم كنا واثقين من أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها غير ما وضعنا في أفواههم ، ليس هذا فحسب بل إنهم سلبوا حق الكلام من مواطنيهم".

هذا هو دور المفكر الذي يتشكل بالشكل الأوربي ويلعب في الدول الإسلامية دور دليل الطريق في البلاد التي لم يكن المستعمر يعرفها أو يعرف لغاتها. وهو السوس الذي عمل في الشرق من أجل تثبيت هذه المادة الثقافية والاقتصادية والأخلاقية والفلسفية والفكرية للاستعمار الغربي داخل هذه الأشجار المورقة الأصيلة. "هذا هو السوس الذي كنا قد صنعناه وسميناه "المفكرين" كانوا عالمين بلغاتنا، وكان قصارى همهم ومنتهى أملهم أن يصبحوا مثلنا، في حين أنهم أشباهنا وليسوا مثلنا، إنما نخرؤوا من الداخل ثقافة أهلهم، وأديانهم القومية التي تصنع الحضارات

ومثلهم وأحاسيسهم وأفكارهم الجميلة ، وأصالتهم الأخلاقية والإنسانية ، وتحت أي شعار وباسم من ؟ ، باسم مقاومة الخرافات أو مكافحة الرجعية أو الوقوف ضد السلفية ، وباسم أولئك المفكرين الأوربيين الذين قاوموا الرجعية والكنيسة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أمثال غاليليو وكانت وديكارت وجان جاك روسو وفولتير وغيرهم من الكُتاب الموسوعيين الذين ناضلوا في سبيل الحرية ، كانوا مفكرين بالفعل وأناساً بذلوا أرواحهم في سبيل الحرية - يعني الحرية من طغيان الكنيسة وأصحاب الملك الإلهي - كانوا نوابغنا الفكريين وعلماءنا العظام" (٢) انتهى كلام سارتر. وكما كان كلامه معبراً عن هذه المرحلة العصبية في حياة المسلمين ، وواخجلاً لأتباع سارتر في بلاد المسلمين ؛ عبوده في حياته، وكادوا يهلكون لوفاته وسخروا أقلامهم ومجلاتهم وجرائدهم وكتبهم للثناء عليه وعلى أفكاره التي سخر منهم فيها كما سبق (٣) ، لكنه خلق الهزيمة والوهن والاستخذاء.

أما توينبي فيقول : "لم يكتف الأتراك بتغيير دستورهم - وهو شيء سهل نسبياً في مجال الإصلاح الدستوري - بل قامت الجمهورية التركية الوليدة بخلع المدافع عن الدين الإسلامي - الخليفة - وألغت منصب الخلافة ، وجردت رجال الدين المسلمين وحلت منظماتهم ، وأزالت الحجاب عن رأس المرأة ، واستنكرت كل ما يرمز إليه الحجاب ، وأجبرت الرجال على ارتداء القبعات التي تمنع لابسها من أداء شعائر الصلاة الإسلامية بأكملها ، وتبنت القانون المدني السويسري بعد أن ترجمته إلى التركية ، وطبقت قانون الجرائم الإيطالي، وذلك بفرض هذين القانونين بعد التصويت عليهما في المجلس الوطني، وغيرت الأحرف العربية بأحرف لاتينية ، وهذا أمر لم يتم إلا بطرح القسم الأكبر من التراث الأدبي العثماني القديم. ويجب على المراقب الغربي أن يراعي حدود اللياقة فلا يغالط ولا يسخر ، لأن ما يحاول المقلدون الأتراك القيام به هو تغيير وطنهم مما هم فيه إلى حالة كنا نحن - منذ النقاء الغرب بالإسلام - ننتقدهم لعدم وجودها فيهم ، وما هم حاولوا ولو متأخرين إقامة صورة طبق الأصل لدولة غربية وشعب غربي. وعندما ندرك تماماً هدفهم الذي رموا إليه ، لا نستطيع إلا التساؤل بحيرة : هل يبرر هذا الهدف حقاً الجهد الذي بذلوه في صراعهم لبلوغه ؟!.

والآن بعد أن تغير التركي بتحريضنا ورقابتنا ، وبعد أن أصبح يفتش عن كل وسيلة لجعل نفسه مماثلاً لنا وللشعوب الغربية من حوله ، الآن نحس نحن بالضيق والحرج ونميل إلى الشعور بالسخط والحنق ، وأن التركي مهما فعل مخطئ في نظرنا !" ثم يقول : "إن حركة المقلدين متبعة وليست مخترعة مبتدعة ، لذا ففي حالة نجاحها - جدلاً - لن تزيد إلا في كمية المصنوعات التي تنتجها الآلة في المجتمعات الصناعية ، بدل أن تطلق شيئاً من الطاقة المبدعة في النفس البشرية ، وهذه الحركة تزيد كذلك في أعداد المقلدين وتضخم المستعبدين" (٤).

الهوامش :

- ١- لم نترجم مقدمة سارتر للكتاب في الطبعة العربية كاملة ، ولكن ترجمت مقاطع فقط ، منها النص المشار إليه .
- ٢- فاضل رسول "هكذا تكلم علي شريعتي" ، دار القلم ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٣م ، ص ١٢١،-١٢٢
- ٣- زار سارتر مصر في العهد الداير مع جارودي - حين كان شيوعياً - فكان حدثاً لدى الإعلام الموتور هز القطر وصعد محمد حسنين هيكل ليستقبله على باب الطائرة ، ونودي خلال الزيارة بعبد الرحمن بدوي رأساً للوجوديين المصريين إثر إخراج كتابه عن الوجودية ، ثم توجه مع "صديقه" "سيمون دي بوفوار" إلى "إسرائيل" ، وفي باريس يخرج في مظاهرات مؤيدة لليهود والإسرائيليين، ويجمع لهم التبرعات، وحوادثه الفردية فقط تكفي لإدراك مدى استحقاقهم السخرية منهم وهو يجمع الرصاص لقتلهم ، في حين يركعون له ولكذبه ومجونه وسخريته ويجعلون من عجوزه الإباحية مثالا للتقدم والحرية والتطور.
- ٤ - محمد قطب : مفاهيم ينبغي أن تصحح ، دار الشروق ، ١٤٠٧هـ ، ص ٣٥٧ - ٣٦٠ بتصرف ، وهذا نقلاً عن كتاب "الإسلام والغرب والمستقبل" محاضرات لتوينبي في عامي ١٩٤٧-١٩٥٢ ترجمها د.نبيل صبحي ، دار العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، عام ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ص ٥٠-٥٣.

الثبات على دين الله**- ١ -****محمد صالح المنجد**

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد :

فإن الثبات على دين الله مطلب أساسي لكل مسلم صادق يريد سلوك الصراط المستقيم بعزيمة ورشد.

أهمية الموضوع تكمن في أمور منها :

- وضع المجتمعات الحالية التي يعيش فيها المسلمون، وأنواع الفتن والمغريات التي بناها يكتوون، وأصناف الشهوات والشبهات التي بسببها أضحى الدين غريباً ، فنال المتمسكون به مثلاً عجيباً "القابض على دينه كالقابض على الجمر".

ولا شك عند كل ذي لب أن حاجة المسلم اليوم للثبات أعظم من حاجة أخيه أيام السلف والجهد المطلوب لتحقيقه أكبر.

- كثرة حوادث الردة والنكوص على الأعقاب ، والانتكاسات بين المسلمين ؛ مما يحمل المسلم على الخوف من أمثال تلك المصائر ، ويتلمس وسائل الثبات للوصول إلى بر آمن.

- ارتباط الموضوع بالقلب ؛ الذي يقول النبي صلى الله عليه وسلم- في شأنه : "أقلب ابن آدم أشد انقلاباً من الفؤد إذا استجمعت غلياناً" (١).

ويضرب - عليه الصلاة والسلام - للقلب مثلاً آخر فيقول : "إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب مثل ريشة بالفلاة تعلقت في أصل شجرة يقلبها الريح ظهراً لبطن" (٢)، فسبق قول الشاعر :

ما سمي الإنسان إلا لنسيانه ولا القلب إلا أنه يتقلب

فتثبيت هذا المتقلب برياح الشهوات والشبهات أمر خطير يحتاج لوسائل جبارة تكافئ ضخامة المهمة وصعوبتها.

ومن رحمة الله - عز وجل - بنا أن بيّن لنا في كتابه وعلى لسان نبيه وفي سيرته وسائل كثيرة للثبات ، أستعرض معك - أيها القارئ الكريم - بعضاً منها :

أولاً : الإقبال على القرآن :

القرآن العظيم وسيلة التثبيت الأولى وهو حبل الله المتين ، والنور المبين ، من تمسك به عصمه الله ومن اتبعه أنجاه الله ، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

نص الله على أن وظيفة هذا الكتاب والغاية التي من أجلها أنزله منجماً مفصلاً هي التثبيت ، فقال -تعالى- في معرض الرد على شبه الكفار : ((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)) [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

كيف يكون القرآن مصدراً للتثبيت !؟

* لأنه يزرع الإيمان ويزكي النفس بالصلة بالله.

* لأن تلك الآيات تنزل برداً وسلاماً على قلب المؤمن الذي تعصف به رياح الفتنة ، فيطمئن قلبه بذكر الله.

* لأنه يزود المسلم بالتصورات والقيم الصحيحة التي يستطيع من خلالها أن يقوم الأوضاع من حوله ، وكذا الموازين التي تهيب له الحكم على الأمور فلا يضطرب حكمه ولا تتناقض أقواله باختلاف الأحداث والأشخاص.

* إنه يرد على الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين كالأمثلة الحية التي عاشها الصدر الأول.

ما هو أثر قول الله - عز وجل - : ((مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)) [الضحى: ٣] على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم- لما قال المشركون : ودع محمد (٣) !؟

ما هو أثر قول الله - عز وجل - : ((لَسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)) [النحل: ١٠٣] لما ادعى كفار قريش أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - إنما يعلمه بشر وأنه يأخذ القرآن عن نجار رومي بمكة؟! ما هو أثر قول الله - عز وجل - : ((أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا)) [التوبة: ٤٩] في نفوس المؤمنين لما قال المنافق ((أَنْذَنْ لِي وَلَا تَنْفِتْنِي)) [التوبة: ٤٩]؟! ليس تثبيتاً على تثبيت ، وربطاً على القلوب المؤمنة ، ورداً على الشبهات وإسكاتاً لأهل الباطل.. ؟ بلى وربي.

ومن هنا نستطيع أن ندرك الفرق بين الذين ربطوا حياتهم بالقرآن وأقبلوا عليه تلاوة وحفظاً وتفسيراً وتدبراً ؛ منه ينطلقون ، وإليه يفيئون ، وبين من جعلوا كلام البشر جل همهم وشغلهم الشاغل.

ثانياً : التزام شرع الله والعمل الصالح :

قال الله - تعالى - : ((يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)) [إبراهيم: ٢٧]. قال قتادة : أما ((في الحياة الدنيا)) فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ((وفي الآخرة)) في القبر. وكذا روي عن غير واحد من السلف (٤). وقال سبحانه : ((وَلَوْ أَنْهَمُ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا)) [النساء: ١٦٦] ، أي على الحق. وهذا بين ، وإلا فهل نتوقع ثباتاً من الكسالى القاعدين عن الأعمال الصالحة إذا أطلت الفتنة برأسها وادلهم الخطب ؟ ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم الله إليه صراطاً مستقيماً ويثبتهم بما ثبتوا به أنفسهم في الدنيا.

ثالثاً : تدبر قصص الأنبياء ودراساتها للتأسي والعمل :

والدليل على ذلك قوله - تعالى - : ((وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)) [هود: ١٢٠]. فما نزلت تلك الآيات على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للتسلية والتفكه ، وإنما لغرض عظيم هو تثبيت فؤاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأفئدة المؤمنين معه.

فلو تأملت - يا أخي ! - قول الله - عز وجل - : ((قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)) [الانبيا: ٦٨-٧٠] ، قال ابن عباس : "كان آخر قول إبراهيم حين ألقى في النار : "حسبي الله ونعم الوكيل"" (٥). ألا تشعر بمعنى من معاني الثبات أمام الطغيان والعذاب يدخل نفسك وأنت تتأمل هذه القصة ؟.

لو تدبرت قول الله - عز وجل - في قصة موسى : ((فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)) [الشعراء: ٦١، ٦٢] ، ألا تحس بمعنى آخر من معاني الثبات عند ملاحقة الظالمين ، والثبات في لحظات الشدة وسط صرخات اليائسين وأنت تتدبر هذه القصة ؟.

لو استعرضت قصة سحرة فرعون ذلك المثل العجيب للثبات التي تثبت على الحق بعدما تبين ، ألا ترى أن معنى عظيماً من معاني الثبات يستقر في النفس أمام تهديدات الظالم وهو يقول : ((قَالَ أَمْنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)) [طه: ٧١] - ثبات القلة المؤمنة الذي لا يشوبه أدنى تراجع وهم يقولون : ((قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)) [طه: ٧٢].

وهكذا قصة المؤمن في سورة يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الأخدود وغيرها يكاد الثبات يكون أعظم دروسها قاطبة.

رابعاً : الدعاء :

من صفات عباد الله المؤمنين أنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يثبتهم : ((رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)) [آل عمران: ٨] ، ((رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا)) [البقرة: ٢٥٠].

ولما كانت "قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء" (٦) كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكثر أن يقول : "يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك" (٧).

خامساً : ذكر الله :

وهو من أعظم أسباب التثبيت وتأمل هذا الاقتران بين الأمرين في قوله - عز وجل - : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا)) [الأنفال: ٤٥] فجعله الله من أعظم ما يعين على الثبات في الجهاد. "وتأمل أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها" (٨) بالرغم من قلة عدد الذاكرين الله كثيراً. وبماذا استعان يوسف - عليه السلام - في الثبات أمام فتنة المرأة ذات المنصب والجمال لما دعته إلى نفسها، ألم يدخل في حصن ((معاذ الله)) ؛ فتكسرت أمواج جنود الشهوات على أسوار حصنه ؟.

سادساً : الحرص على أن يسلك المسلم طريقاً صحيحاً :

والطريق الوحيد الصحيح الذي يجب على كل مسلم سلوكه هو طريق أهل السنة والجماعة طريق الطائفة المنصورة والفرقة الناجية ، ذو العقيدة الصافية والمنهج السليم واتباع السنة والدليل ، والتميز عن أعداء الله ومفاصلة أهل الباطل.

وإذا أردت أن تعرف قيمة هذا في الثبات فتأمل وسائل نفسك لماذا ضل كثير من السابقين واللاحقين وتحيروا ولم تثبت أقدامهم على الصراط المستقيم ولا ماتوا عليه ، أو وصلوا إليه بعدما انقضى جل عمرهم وأضاعوا أوقاتاً ثمينة من حياتهم ؟ . فترى أحدهم يتنقل في منازل البدع والضلال من الفلسفة إلى عالم الكلام والاعتزال إلى التحريف إلى التصوف والتفويض والإرجاء... وهكذا أهل البدع يتحIRON ويضطربون وانظر كيف حرم أهل الكلام الثبات عند الممات فقال السلف : أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام . لكن فكر وتدبر هل رجع أحد من أهل السنة والجماعة عن طريق سخطة بعد إذ وفقه وسلكه ؟ فقد يتركه لأهواء وشهوات أو لشبهة عرضت لعقله الضعيف ، لكن لا يتركه لأنه قد رأى أصح منه أو تبين له بطلانه . ومصداق هذا مساءلة هرقل لأبي سفيان عن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم- قال هرقل لأبي سفيان : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قال أبو سفيان : لا . ثم قال هرقل : "وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب" (٩) .

سمعنا كثيراً عن كبار تنقلوا في منازل البدع أو هداهم الله فتركوا الباطل وانتقلوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة ساخطين على مذاهبهم الأولى ، ولكن هل سمعنا العكس !؟

فإن أردت الثبات فعليك بسبيل المؤمنين .

- يتبع -

الهوامش:

- ١ - رواه الإمام أحمد والحاكم عن المقداد مرفوعاً ، صحيح الجامع (٥٠٢٣) .
- ٢ - رواه الطبراني عن أبي موسى مرفوعاً ، صحيح الجامع (٢٣٦١) .
- ٣ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٤٦/٨) .
- ٤ - المصدر السابق (٥٣٥/٢) .
- ٥ - الفتح (٢٢٩/٨) .
- ٦ - رواه الإمام أحمد ومسلم عن ابن عمر مرفوعاً .
- ٧ - رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً ، صحيح الجامع (٧٨٦٤) .
- ٨ - ما بين القوسين مقتبس من كلام ابن القيم - رحمه الله - في "الداء والدواء" .
- ٩ - رواه البخاري ، الفتح (٣١/١) .

**التصير في العالم العربي
خط مستمر**

إن بعثات التنصير لا تزال تعمل بإصرار من أجل تحقيق أهدافها ، وبخاصة في أنحاء العالم الإسلامي ، والعالم العربي بشكل أخص ، وهي تعتبر أن مجال العمل في صفوف المسلمين في العالم العربي من أشق المهام ، وهي قلقة - كعادتها دائماً - من مزاحمة الإسلام لها ، فإذا أحرزت بعض النجاح في البلاد التي تعتبر مهذاً للإسلام فإنها تكسب كسباً مادياً ومعنوياً.

أما الكسب المادي فإنها تكون قد أوجدت القاعدة التي تتكى عليها من أهل البلاد الأصليين.

وأما الكسب المعنوي فهو ظهورها أمام من يرعون نشاطات التنصير في العالم ، وخاصة في العالم الغربي بأنها حققت شيئاً فتكسب تعاطفهم وحماسهم لتأييدها بما يستطيعون ولذلك فإن التنصير يلح على أن يعمق جذوره في العالم العربي ، ويعد من أجل ذلك الدورات والمؤتمرات ، ويشرف على النشاطات السرية والعلنية المرتبطة بمنظمات نشطة في أوروبا وأمريكا. وقد أرسل إلى هذه المجلة أحد الدعاة من أمريكا عدداً من نشرة تبشيرية تصدر هناك تسمى ديت لاين (Date Line) ، تخطط لاتباعها طرق التنصير ، وتحضهم على الانضمام إلى دوراتها التدريبية التي تعدها لتأهيلهم للقيام بهذه المهمة.

حول النشرة :

النشرة موجهة أصلاً إلى المسيحيين الذين يهتمون بتنصير المسلمين وبأوضاع العالم العربي ، فهي من جهة تحضهم على التطوع للعمل في هذه البلاد ، وتبث في نفوسهم العزيمة من أجل القيام بهذا العمل الشاق ، ثم تلقنهم كيفية نشر أصول الدعوة المسيحية بين المسلمين عن طريق تقريب وجهات النظر فيما يخص مفهوم التوحيد والتثليث ، ثم تركز بشكل خاص على القسم الشمالي الغربي من إفريقيا ودعوة (للصلاة) من أجل فتح (المغرب) ، بالإضافة إلى إعلانات تتعلق بهذه الأنشطة.

تحت عنوان "لا بد أن يفتح الباب إذا واصلت قرعه ":

ورد في النشرة ما يلي :

"يا من لهم تمرس أكبر في العمل في ديار الإسلام - أنتم ولا شك تعلمون أنه لا يسمح للمسلم شرعاً أن يرتد عن دينه ويعتق ديناً آخر، وقد تستنتجون من ذلك استحالة العمل بينهم، وكذلك لا مجال للبعثات التنصيرية للعمل هناك، إذ ليس مسترحاً لها بالنشاط، فقد أسدل الستار وبني الحصن بقوة قد تبدو غير قابلة للاختراق خاصة في نظر الذين يغفلون عما يصنعه الرب في العالم العربي.

هناك إحساس لدى العاملين في البلاد الإسلامية أننا أمام فتح مبین، صحيح أن بعض الجهات في العالم الإسلامي أصبحت أكثر تعصباً، ولكنها تبقى أقلية شديدة البروز فقط، والذي يدفعنا إلى مضاعفة جهودنا الآن هو ما نراه من تغيير في المواقف والمزاج لدى الأغلبية.

إن ما يربو على ٦٥% من سكان العالم العربي الآن هم دون الثلاثين ، وفي دائرة هذه السن تقوى نزعة البحث عن الحقيقة والاستقرار، والعثور على منارة هادية في خضم الاضطرابات التي تعترضهم وهم يواجهون مشكلات العصر ، وفي الوقت الذي ارتفعت فيه نسبة المتعلمين فإن نسبة البطالة ارتفعت كذلك. صحيح أن دعوات التزمت الديني قائمة، ولكن الذين يناصرون الغرب ، ويحبذون اتباع سبله كثر. ومما يزيد في تعقيد هذه المشكلة الأزمت الإسكانية وعدم الاستقرار الاقتصادي والاضطرابات الاجتماعية في وقت يسعى فيه الجميع إلى تحسين مستوى معيشتهم.

هناك بعثات تنصيرية فعالة تعمل حالياً بنجاح في هذه البلاد المنبوعة ظاهرياً، ولكن هذه البعثات تتعرض يومياً لتوترات وضغوط لا يمكن تجاوزها إلا بوسائل روحانية (!! فنحن شهود عيان لما تصنع يد الرب في أوضاع قد تبدو مستحيلة، نحن نشهد نتائج لا يمكن تفسيرها إلا بقبول صلواتنا، إن الصلاة هي جانب من أعظم جوانب الشعائر التي يجب على الكنيسة في الغرب الاهتمام بها، بإمكاننا الادعاء بالنجاح في فتح الأبواب على مصاريعها، بإمكاننا دخول أمصار جديدة، بإمكاننا بعون الله، وبفضل كل صلوات المبشرين وتضحياتهم - تسريب فرق همها الشاغل هو كسر قبضة الإسلام الحديدية ، فقد عُرف العالم العربي بأنه أشد المناطق صعوبة على وجه الأرض لدخول الإنجيل، ولا يزال غير ملتفت إليه بشكل كافٍ من قبل رجال الكنيسة نتيجة لجهلهم، إن العالم العربي لم يحصل على هذه السمعة إلا لقلّة المتطوعين للتضحية في سبيل إعلاء كلمة الإنجيل.

نحن نعيش في مجتمع يقيس النجاح بالكم، وكلمتنا هذه نظرة للكيف عن طريق الطاعة، وعلينا أن ننظر إلى العالم العربي من منظار الرب، فلو أننا استصعبنا هذه المهمة لكنا قد ظننا نقصاً في قوة الرب، فكأننا نزعّم أن هذا المجال يعجز الرب عن العمل فيه. وقد وصلنا مؤخراً في اجتماعات مؤتمر الكنائس العالمي في فرنسا إلى اتخاذ قرارات حددنا فيها أهدافنا إلى عام ٢٠٠٠م، وبعد صلواتنا المكثفة (الحارة) شعرنا أن الرب يحثنا على الانفتاح وعدم التواني في فتح أبواب جديدة على العالم العربي، وسيركز العدد القادم من ديت لاين Line Date على الطرق الجريئة التي تدخل في باب المستحيل، صارخاً : افتحوا الأبواب !

دعاء من أجل فتح المغرب !

تحت هذا العنوان تقدم هذه الفقرة لمحة تاريخية عن المغرب من وجهة نظر مسيحية، ولكنها تعترف - مرغمة - بأن الغالبية الساحقة من سكان المغرب مسلمون - ما عدا أقلية من اليهود ، وأخرى من المسيحيين - من أصل أوروبي. ويدعو كاتب هذه الفقرة أتباعه إلى الصلاة من أجل تحقق حرية أكثر للأديان في المغرب (يقصد حرية البعثات التنصيرية)، ويشير إلى جهود الإذاعات

التنصيرية الموجهة إلى الشعب المسلم في المغرب ، وكذلك إلى جهود التنصير عن طريق المراسلة ، ويذكر أن حوالي (١٥٠) ألف مغربي تُرسل إليهم الدروس التنصيرية عبر البريد من أوروبا ومن مركز التنصير الخاص بالعالم العربي (A.W.M.) مع اعترافه بالصعوبات التي تلقاها هذه الجهود إلا أنه مستبشر بالنتائج إذا سبقها الإصرار والمتابعة.

إرشادات للمتطوعين :

الفقرة التالية فيها تحذير أن تقع نشرات خطط التنصير بأيدي المسلمين لأن في ذلك خطراً وتعطيلاً لبرامج نشر المسيحية بين المسلمين: مديرنا العام كثيراً ما ذكرنا بأننا لسنا في نزهة ترفيحية، وإنما نحن في حالة حرب (!!) لهذا فنحن نؤكد على أهمية الصلاة والدعاء وطلب العون من محبي ومؤيدي الصلاة، ولكي يكون لصلاتنا معنى، فنحن بحاجة إلى الوقت والجهد وتحمل أعباء العالم الإسلامي، وإلى المعلومات الصحيحة الوافية.

إن كنت تريد الصلاة دورياً والحصول على نشرتنا الشهرية "آخر الأنباء" فالرجاء إعلامنا بذلك، إن هذه النشرة تحتوي على معلومات سرية حول الصلاة، ولأننا نعمل في بلاد معادية للمسيحية فهذه النشرة ترتدي طابعاً سرياً لا يجوز أن يطلع عليه العوام، فلو وقعت هذه المعلومات في أيدي غير موثوقة لربما أدى ذلك إلى عواقب وخيمة؛ لهذا السبب نطلب تزويدنا باسم كنيسةك والقس الذي يديرها لأسباب أمنية فقط !.

طبيعة عمل بعثات التنصير :

تسعى بعثات تنصير العالم العربي أولاً إلى تأسيس كنيسة "يسوع المسيح" في العالمين البربري والعربي (!!) ولدينا فرق تعمل في صفوف المليونيين مسلم من المغرب العربي في فرنسا، ونبت برامج مراسلة وإذاعية لنشر الإنجيل على أوسع نطاق ممكن انطلاقاً من مركزنا الإعلامي الموجه إلى العالم العربي.

التحدي :

نهدف - في هذه المرحلة تحديداً - إلى دخول ١٠٠ مدينة جديدة موزعة على ٢٠ دولة دتي

في عام ٢٠٠٠م ، ونحن ننتظر بشوق وحماسة إمكانية نجاحنا في إيصال هذه البشارة إلى أمكنة لم يسبق أن وصلتها من قبل.

فرصة سانحة :

إن العالم الإسلامي هو أحد الأماكن التي تحظى بالقليل من الرعاية والكثير من الإهمال من قبل المنصرين حالياً، فخمس سكان العالم اليوم (كذا) مسلمون، وهو آخر الخطوط الدفاعية الأخيرة التي لا بد للإنجيل من اختراقها ، فإن كنت ترغب في

مواجهة التحدي وتوسيع الأفق ، والتعرف على حاجات العالم الإسلامي الحالية فهلمّ للمشاركة في إحدى دوراتنا التدريبية الصيفية، اكتشف حقيقة الإسلام، تعرّف على ما يؤمن المسلم ، وعش معنا تلك اللحظات التي يشترك فيها النصراني مع المسلم في الرسالة !.

دورات ومهام :

نحن نؤمن بأننا دخلنا في عهد مليء بالانتصارات داخل العالم ، لماذا لا تشارك في إحدى الدورات التالية ، ولا تشهد بنفسك صنع الرب (!) داخل العالم الإسلامي؟

في مونتريال - تورنتو - فيلادلفيا:

دورات مكثفة حول المسائل الإسلامية والرد المسيحي عليها - تدريب على الانفتاح المركز على التنصير عن طريق الصداقة (٤ أسابيع).

في فرنسا: الخروج إلى مدينة فرنسية نسبة المغاربة فيها كبيرة (٤ أسابيع).

لندن : دراسات إسلامية والرد المسيحي (أسبوعان).

في تونس : برنامج توجيهي وخروج، تدريبات في لندن، طر إلى تونس وتجول في أرجاء البلاد وزر مدناً كبيرة (٤-٦ أسابيع).

الشرق الأوسط: برنامج توجيهي ومخيم في عمّان، جولة في سورية ومصر، برنامج الخروج في لندن (٦-٨ أسابيع).

المغرب: برنامج توجيهي وخروج في لندن ، زيارة برية للمغرب عبر أوربا (٤-٦ أسابيع).

هذه دورات مكثفة تحتاج إلى صبر ومتابعة وينبغي أن يتصف راغبو الالتحاق بها بالوعي وبتزكية موثوقة.

يشتمل البرنامج على خروج واتصال بالمسلمين وباقي نشاطات بعثات التنصير في العالم العربي، السن المطلوبة: ١٨ فما فوق.

شبهات :

الفقرة التالية فقرة إرشادية لمن يقومون بالتنصير بين المسلمين وما يواجهونه من صعوبة في الرد على فكرة الشرك والتثليث عند النصارى :

"لا إله إلا الله" يرددها المسلم العادي مراراً كل يوم في صلواته، وإعلاناً عن عقيدته الإسلامية. والقرآن يعتبر أن أعظم الذنوب وأكبر الكبائر هو الإشراك بالله.

ومع أن القرآن يعترف في مواضع عدة منه بعبادة اليهود والنصارى لإله واحد ؛ فإنه يشير أيضاً إلى أن النصارى يعبدون أكثر من إله، أو أنهم يعبدون عيسى

المسيح من دون الله : ((لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ)) [المائدة:٧٣] ، ((وإذ

قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ))

[المائدة: ١١٦] ، ((لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)) [المائدة:١٧].

يعتقد كثير من المسلمين أن النصارى مثلثون يؤمنون بثلاثة آلهة، بدلاً من حقيقة كونهم موحدين (!) يؤمنون بوجوده ثلاثة للإله الواحد. والثالوث هو: الرب، مريم، عيسى أو: الرب، وعيسى، والروح القدس. وهكذا يعتقد المسلمون أن النصارى يناقضون في عقيدتهم الركن الأساسي في الإسلام وهو توحيد الله الذي ليس كمثلته شيء، وهكذا يكونون قد سقطوا في وهدة الشرك وعبادة الأصنام. فعلى المسيحي أن يسارع بطمأنة صديقه المسلم منذ بداية النقاش أن الكتاب المقدس يشهد بأن الله واحد، وأنه الوحيد الجدير بالعبادة (سفر الخروج ٢٠/ ٢-٣) و(مرقس ٢٩/١٢).

لا بد لنا فعلاً من الاعتراف بأن الله واحد وأنه لا إله إلا هو حتى نكون عباداً صالحين له، ولكن علينا أن نفهم كنهه وطبيعته وما صنعه من أجلنا تكراً منه، وما يطلب منا أن نكون ، وأن نعمل على طاعته.

تعليق أخير :

بعد قراءة محتوى هذه النشرة هناك نقاط كثيرة يحسن الوقوف عندها ، ونكتفي ببعضها ، موجهين الكلام إلى الذين قد يقعون تحت تأثير هؤلاء المنصرين فيقفون أمامهم إما حيارى أو متعاطفين :

- ١ - يتهم هؤلاء المنصرون بعض المسلمين بالتعصب الديني وينسون أنفسهم ، ونحن لا ندرى بماذا نسمي عملهم هذا الذي يهدف إلى حث المسلمين على ترك دينهم واتباع الإنجيل ، ولئن دل هذا على شيء فإنه يدل على قلة الحياء والتلاعب بالألفاظ ، وهما من أهم صفات المنصرين في كل عصر.
- ٢ - أن دراسة هؤلاء لظروف المسلمين في العالم - وفي العالم العربي بشكل خاص - تدفعنا إلى أن نكون نحن أولى بذلك ليكون فهمنا للواقع وتحليلنا للظروف التي يمر بها المسلمون دافعاً للسيطرة على العقبات ، وأساساً لمعالجة هذه الأزمات.
- ٣ - أن أشد ما يثير حنق المنصرين وأتباعهم هو "قبضة الإسلام الحديدية" ؛ لذلك هم يعملون جاهدين لانحلال هذه القبضة عن طريق تشكيك أجيال المسلمين بدينهم ، وزرع المفاهيم الغربية بينهم.
- ٤ - يصلي هؤلاء من أجل تحقيق حرية الأديان في المغرب ، وهم يقصدون حرية النشاطات التنصيرية في المغرب أكثر مما هي عليه الآن ، وهم لو كانوا منصفين لأقروا بأن المغرب من أكثر الدول تسامحاً مع اليهود والنصارى. ولأمر ما تركز مراكز التنصير على المغرب العربي ، فهو الجزء الأقرب إلى أوروبا وهو جسر العبور إلى باقي العالم العربي وإفريقية ، وهو المكان المحتمل منه الخطر على الحضارة الأوروبية أكثر من غيره.

٥ - ليس هناك أصدق ولا أبلغ من وصف حالة المنصرين مع المسلمين بأنها "حالة حرب" كما ورد في (إرشادات للمتطوعين) وهذا الوصف كلمة حق ينطق بها العدو من أجل أن يعرف كيده ويحتاط له الاحتياط كله.

أن من فضل الله على المسلمين أن جعل عقيدتهم سهلة واضحة ، تتقبلها الفطرة ، وتأبى على الأساليب الملتوية ، والمداورات التشكيكية ولا غرابة في ذلك فهي عقيدة الرسل جميعاً من لدن آدم إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم-. وأن عقيدة التوحيد هي الأساس الذي يتحطم عليه كل ادعاء ، وأي مسلم يقرأ محاولة هؤلاء المنصرين إثبات أنهم يؤمنون بإله واحد - كإيمان المسلمين - يكتشف أنهم يتلاعبون بالحقائق ، ويسخرون من العقول. وهم إذا أرادوا من المسلم أن يتجاوز عن وصف القرآن لهم بالكفر في أكثر من موضع فهم أمام أمرين :

أ- أن يشك المسلم بأن هذا القرآن - أو بعضه - كلام الله وهذا كفر صريح لا يقدم عليه مسلم وهم يطمحون إلى ذلك طبعاً.

ب - أو أن يقولوا له : إن القرآن حين وصف من وصف من النصارى بالكفر إنما وصف طائفة منهم انقضت أمرها ونحن لسنا منها في شيء، أما نحن فنرفض التثليث ونؤمن بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، وعند ذلك ينتفي عنهم الشرك، وهم لا يثبتون ذلك طبعاً بل يصرون على التثليث من حيث يوهمون أنهم يقولون بالتوحيد. والمسلم لا يرى فرقاً بين من يؤمن بثلاثة آلهة وبين من يؤمن بثلاثة وجوه للإله الواحد!!؛ فكل ذلك كفر.

نعوذ بالله من همزات الشياطين ونفثات المبشرين.

الأم وآمال

شعر : محمد أمين أبو بكر

الأرض ناحت والخطوب جسام
 في محنة بسطت سحائب بؤسها
 أنام والآفاق ترعد حولنا
 والرياح تعصف والضياع طعام
 والعقل يصرخ والضمانر تشتكي
 والموت في جل العيون ينام
 في حقبة من عمرنا أضحى بها
 يخشى الضياء ويعشق الإظلام
 أو ما كفى نوماً يغال حياتنا
 وتموت في ظلماته الأحلام
 البعد عن شمس الهداية مأتى
 دفنت مفاخرنا به الأقسام
 لم لا تعود إلى الضياء عقولنا
 ويضئ كل دروبنا الإسلام
 لم لا يعود إلى الصدارة ركبنا
 يمضي وتخفق فوقه الأعلام
 لنقيم أبراج الإباء بهمة
 في ركبها تتهلل الأعوام

فالمجد في ساح البطولة صنعة لا الغيد تصنعه ولا الأوهام
والظلم يلتهم الأنام بنابه ويضج فيها من لظاه ضرام
هاقد علت بين الديار نوازل يهتز منها الترب والآكام
النيل يزأر والفترات مضرج وشفاف كابل لفها الإجرام
والليل يعوي والزوابع لا تعي والقدس في وضح النهار تسام
من قاتل عشق الجريمة بعدما سخرت به وبجنده الأقوام
هبوا إلى العلياء إن تراثنا في كل أرض سيد وإمام
فإذا استقام على الهداية ركبنا يخضر فوق هضابنا الإقدام
وترف أغصان السعادة فوقنا وتزول من أصقاعنا الأسقام

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته باكستان... بعد ضياء الحق

صرح مصدر أمريكي مسؤول أن يولي فورونتسوف نائب وزير الخارجية السوفياتي حذر السفير الأمريكي في موسكو من أن السوفيات سيلقنون الرئيس الباكستاني درساً إذا لم يوقف دعمه للمجاهدين الأفغان. وأضاف المسؤول الأمريكي أننا اعتقدنا أنهم -أي السوفيات- سيقومون ببعض التفجيرات في أهداف في باكستان، وقد ذهبنا إلى السوفيات وحذرناهم من تفجير أي أهداف باكستانية وأكدنا لهم اهتمامنا العميق بباكستان، وردوا بقولهم: إنهم لن يفجروا شيئاً ولكنهم سيلقنون ضياء الحق درساً (١). كان ذلك حوالي ١٩٨٨/٨/٧. وفي ١٩٨٨/٨/١٥ أعلن المسؤولون في الكرملين أن دور باكستان لم يعد من الممكن احتمالها أو التسامح به ، وأن الاتحاد السوفياتي يحتفظ لنفسه بحق اتخاذ ما يرى من الإجراءات ضد هذا الدور (٢).

وفي ١٩٨٨/٨/١٧ - أي بعد تهديد موسكو بيومين - مات الرئيس الباكستاني ضياء الحق عندما انفجرت في الجو الطائرة التي كانت تقله من مطار باوالبور إلى مطار روالبندي ، وعثرت فرق البحث التابعة للقوات الجوية الباكستانية على جثث الرئيس الباكستاني ورئيس أركانها ، والسفير الأمريكي وآخرين من كبار الضباط والمستشارين متناثرة فوق سهل رملي قريب من حدود باكستان مع الهند - أي في إقليم البنجاب - ونقل ما تبقى من هذه الجثث بعد أن بذلوا جهوداً مضنية للوصول إلى جثة الرئيس وتمييزها عن غيرها من الجثث ، هكذا قالوا ، ولربما وضعوا يد هذا مع صدر أو رأس ذلك !

هكذا ينتهي مصير الإنسان في لحظات بينما هو يخطط لعشرات السنين ، وربما كان الرئيس مشغولاً قبل الموت بثوانٍ بالانتخابات والمعارضة وما يفعل بهذا وما يدبر لذلك.

قال - تعالى - : ((إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) [لقمان: ٣٤].

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله - جل وعلا - بعلمها ، ضياء الحق ما كان يدري أنه سيموت في إقليم البنجاب ، الأرض التي ولد ونشأ وترعرع فيها ، ورحل منها مع والديه وأهله عام ١٩٤٧ أي بعد إنشاء باكستان.

ما كان يدري السفير الأمريكي الداهية المتمرس بشؤون العالم الإسلامي أن طموحه سيقوده إلى هذه النهاية التعيسة ، فلربما كان يخطط ليكون رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية ومؤهلاته تسمح له بمثل هذه الطموحات.

لقد ذهّل الناس في باكستان لأن الرحلة كانت سرية ولم يعلن عنها ، ومبلغ علمهم أن رئيسهم في إسلام آباد ، وها هو يموت في إقليم البنجاب ، رئيسهم الذي لمع نجمه ، وعظم شأنه ، وأثبت جدارة في الحكم ودهاءً وحكمة في السياسة.

كم نتمنى أن تنقل إلينا بصدق أحاسيس الطغاة (٣) البغاة ومشاعرهم عندما سمعوا هذا النبأ ، لكأننا بهم يخشون من جدران منازلهم ومكاتبهم ، وترتعد فرائصهم من حرسهم وخدمهم ، وتتضاعف دقات قلوبهم عندما يركبون حافلة أو طائرة ، ألا ما أتعس حياة الذين يعيشون في قلق واضطراب ! ، وما أذل الذين يستبدون وينكرون بالأبرياء الأحرار ليتلذذوا بالحكم وينعموا بالجاه والمال ، ويتناسوا يوماً يرجعون فيه إلى الله ((نَمْ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)) [آل عمران: ١٦١].

أما المؤمنون القانتون المتصدقون فقد أعدوا للموت عدته ، وتزودوا بالقوى والعمل الصالح ، ويعلمون حق العلم أنهم قد يموتون في كل يوم ، وفي كل سفر ، ويتشوقون إلى تلك الحياة الأبدية السرمدية التي ليس فيها ظلم ولا قهر ولا طغيان ، ويرجون أن ينعم الله عليهم بجنان الخلد وملك لا يفنى.

ننتقل خطوة أخرى في هذا الموضوع الحساس ، وقبل تحليلنا لأبعاد ضياء الحق ، وتحديد هوية القتالين نريد تسجيل هذه الملحوظات المهمة :

أولاً : مسكين من يقرأ الصحف العربية وحدها ومنها يريد معرفة أوضاع المسلمين في باكستان بعد مقتل ضياء الحق.

- سيجد فيها صحفيين ينعنون الرئيس الباكستاني الراحل بأقبح النعوت ؛ لأنه حاكم عسكري مستبد ، مع أنهم يسبحون بحمد حكام عسكريين يحصون أنفاس مواطنيهم ، ولا يتورعون عن قتل كل من يقول لهم "لا" ، وضياء الحق سمح بوجود معارضة ، وكانت تشتمه وتتآمر ضده ، كما سمح لهم بإصدار نشرات وصحف ومراكز ، وأكثر

أحزاب المعارضة كانت تتحالف وتتكتل ضده ، وما أباد منطقة ولا مدينة ولا قرية ، وإنما كان يواجههم بحنكته السياسية ، فما بال هؤلاء يرون القذى في عيون الناس ولا يرون الجذوع والأغصان في عيونهم؟!

- سيجد فيها - أي في هذه الصحف - تجاهلاً مؤسفاً لأوضاع المسلمين في باكستان بعد مقتل ضياء الحق ، مع أن باكستان - وكما ذكرنا في مقالات سابقة - من أكثر دول العالم اهتماماً وحماسة للقضايا العربية ، بل ولا تستطيع أية حكومة من الحكومات المتعاقبة فيها أن تتخذ موقفاً معادياً لمصالح العرب في فلسطين المحتلة أو في غيرها ، وهذه الصحف نفسها استنفرت أشد الاستنفار عند مقتل (أنديرا غاندي) رئيسة وزراء الهند السابقة ، ووصفتها بأحسن الصفات وأرفعها ، مع أن العلاقات بين الهند و"إسرائيل" لم تعد سراً من الأسرار ، لا نجد سبباً لمعظم هذه الصحف إلا كرهها للشعوب الإسلامية ، وحبها للشعوب العلمانية ، ففي صحيفة عربية يومية دولية تقرأ في عدد من أعدادها الحلقة رقم ٢٠ عن تطورات معركة الرئاسة اللبنانية ، وموضوعات أخرى عن لبنان وطوائف لبنان ، وقطاع طرقها في حين نشرت هذه الصحيفة خبراً لا يتجاوز بضعة أسطر عن مقتل الرئيس الباكستاني ، وأعقبته في اليوم الثاني بتحليل قصير نقلت فيه سموم وكالات الأنباء وانتهى الأمر عند هذا الحد ، وكأنها تتحدث عن الأرجنتين أو عن السويد (٤) ، أفلا تكون باكستان عندهم مثل لبنان التي لا نقلل من أهمية المؤامرات التي تدبر ضده؟!

ثانياً : من المصادر التي اعتمدنا عليها الصحف الغربية وذلك لسببين : السبب الأول : لأن سياسة الغرب في واشنطن ولندن وغيرهما على صلة وثيقة برئيس باكستان الراحل ومن سبقه ومن يأتي بعده. يعرفون أسرارهم ومخططاتهم بل ولهم دور مهم في رسم المخططات ، والبلدان الغربية ديمقراطية ، وبدهي أن تسرب هذه الأسرار - أو ما يسمى بأسرار - إلى كبريات الصحف الغربية لأنها تعمل مع أجهزة مخابرات هذه الدول. والحقيقة أن كبار السياسيين الغربيين يتعمدون نشر هذه الأخبار لإحراج من يسمونهم أصدقاء في دول العالم الثالث وللضغط عليهم.

نعم ، إن زعماء الدول الغربية بل رجال المخابرات فيها يعلمون خفايا ومخططات زعماء إسلام آباد وغير إسلام آباد ، في حين لا يعلم كبار العلماء والدعاة شيئاً ذا بال عن أمور هؤلاء الزعماء ، وإذا سئلوا كانت الردود متناقضة ، يكذب آخرها أولها ، ومن هؤلاء العلماء من تغلب عليه السطحية ، ويصدق كل ما يقال له.

والسبب الثاني : أن أهم ما تنتشره الصحف العربية تقوم بترجمته عن الصحف الغربية ، وهذه - والله - هي البلية بعينها أن يحدثنا الغربيون من النصارى واليهود عن خفايا أمورنا وأسرارنا ، وبعد كل حدث يحدث في بلادنا تتجه أنظارنا إلى صحفهم وأجهزة إعلامهم لنجد فيها الوثائق والأسرار. وإذا كان الأمر كذلك فنرجو

أن نوفق في غربلة ما ينشرون فنرد أكاذيبهم وما أكثرها ، وننقل عنهم ما يثبت عندنا بعد التمحيص والتثبت.

ثالثاً : تتحكم العواطف في عقول كثير من الإسلاميين في مثل هذه الظروف ، ولا يقبلون شيئاً يصدم عواطفهم وينكأ جراحهم ، ولو كان حقاً ومدعوماً بالشواهد والأدلة. ونحن لا ننكر أن لنا عواطف كما أن لهم عواطف ، ونشعر بعظم المصيبة التي وقعت في بلد نحبه ونحب أهله ، ونعرف حجم الضرر الذي لحق بإخواننا المجاهدين الأبطال من رجال الأفغان ، ونعلم أن ضياء الحق أعطاهم عهداً بعد التوقيع على معاهدة جنيف بأنه لن يتخلى عنهم.. نعرف هذا وغيره لكننا سنقول في هذا التحليل ما نعتقد أنه حق ، ولو كان يصدم عواطف كثير من الناس ، والذي نرجوه من الذين يخالفوننا أن ينظروا في الأدلة التي اعتمدنا عليها ، وإن أصروا بعد هذا على موقفهم فعليهم أن يتذكروا أن هذه المسألة من المسائل التي يجوز فيها الاجتهاد واختلاف وجهات النظر.

وبعد ذكر هذه الملحوظات ننتقل إلى خطوة أخرى ينتظرها القارئ بفارغ الصبر ، وطبيعة الموضوع تفرض علينا تقسيمه إلى الفقرات التالية :

أولاً - نبذة عن حياة ضياء الحق.

ثانياً - المتهمون بقتل ضياء الحق.

ثالثاً - الدور الأمريكي في باكستان.

رابعاً - باكستان بعد ضياء الحق.

أولاً - نبذة عن حياة ضياء الحق :

ولد ضياء الحق في ١٢/٨/١٩٢٤ في مدينة "جولاندار" في مقاطعة البنجاب ، وتلقى تعليمه في كلية (سانت ستيفنز) في دلهي والتحق بعدئذ بالجيش البريطاني في الهند ، وأصبح ضابطاً فيه سنة ١٩٤٥ - سلاح الفرسان - وفي عام ١٩٤٨ رحل مع أسرته إلى كراتشي في دولة باكستان الجديدة وأصبح ضابطاً في جيشها ، وكان يعرف عنه أنه ضابط هادئ منضبط ، وليس له طموحات سياسية ، وكان يحب العسكرية كما كان محبوباً بين زملائه ومرؤوسيه.

وفي باكستان واصل علومه العسكرية ، وتخرج من كلية الأركان عام ١٩٥٥ ثم عاد ليعمل مدرساً في الكلية المذكورة.

وفي ١٩٦٥ عام شارك في الحرب التي نشبت بين باكستان والهند ، وفي عام ١٩٦٩ سافر للأردن وعمل مستشاراً عسكرياً ، ومن الجدير بالذكر أن علاقات الأردن مع باكستان متميزة ، وشهد في الأردن معارك أيلول ، وفي عام ١٩٧١ شارك في الحرب الهندية الباكستانية التي انتهت بانفصال الجزء الشرقي من باكستان عن الجزء الغربي ، وسميت هذه الدولة (بنغلاديش).

وفي عام ١٩٧٧م اتخذ الرئيس الباكستاني السابق قراراً بترقية ضياء الحق إلى رتبة جنرال ، وعينه قائداً للجيش ، وتجاوز - بوتو - جنرالات آخرين كانوا هم أقدم من ضياء الحق ، وذلك بسبب ثقة بوتو به واطمئنانه إليه.

وفي عام ١٩٧٧م راح بوتو ينكل بخصومه وقاوم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، وعمل على نشر الأفكار العلمانية، وثقافة الغرب وأخلاقياته ومفاسده ، فعارضته الجماعات الإسلامية ، وأدت هذه المعارضة إلى وقوع قلاقل واضطرابات ، انتهت باستيلاء الجيش على زمام الأمور في البلاد ، وكان ضياء الحق قائد الانقلاب العسكري الذي أطاح بنظام بوتو وقدمه إلى محاكمة ، وحكمت عليه المحكمة بالإعدام ، وتم إعدامه فعلاً ؛ لأنه دبر جريمة قتل أحد معارضيه.

وشكل ضياء الحق حكومة شاركت فيها الجماعات الإسلامية مهمتها تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية غير أنه تراجع فيما بعد أمام معارضة أمريكا والدول الغربية ، وشركائه العسكريين.

وفي عام ١٩٧٩م وقف ضياء الحق إلى جانب المجاهدين الأفغان في حربهم ضد الغزاة البلاشفة السوفييات ، ومهما كان هدفه من تأييد المسلمين الأفغان - والنيات لا يعلمها إلا عالم الغيوب - فقد اكتسب شهرة عالمية ، وتعززت علاقته مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وتدفق المال والسلاح على باكستان بعد فتور في العلاقات بسبب المفاعل النووي وغيره.

وفي عام ١٩٨١ لعب دوراً مهماً في اللجنة التي شكلها مؤتمر القمة الإسلامي لتسوية النزاع بين العراق وإيران ، وفشلت اللجنة في مهمتها أمام تعنت إيران وإصرارها على استمرار الحرب ، واعتبرت العراق ضياء الحق طرفاً في النزاع وليس وسيطاً ، واتهمته بالانحياز إلى جانب إيران.

توفي في ١٧/٨/١٩٨٨ بعد سقوط طائرته وترك وراءه أرملة وولدين وثلاث بنات.

ثانياً - المتهمون بقتل ضياء الحق :

من حق القراء علينا أن نطلعهم على أهم ما نشرته الصحف ووكالات الأنباء عن مقتل الرئيس الباكستاني ، وبعد هذا العرض سنقول رأينا ونبين موقفنا والقرائن التي اعتمدنا عليها.

وخلاصة ما نُشر - فيما اطلعنا عليه - ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ - السوفييات والهنود.

٢ - أتباع إيران.

٣ - الجيش الباكستاني.

أولاً : السوفييات والهنود :

قالت صحيفة "أوبزرفر" - في عددها الصادر بتاريخ ٢٨/٨/١٩٨٨ - : "أصبحت السلطات الباكستانية الآن مقتنعة بمسؤولية جهاز المخابرات الهندية عن تحطم طائرة

ضياء الحق. وفشل فريق الخبراء الأمريكي الذي تولى مهام فحص حطام الطائرة في الوصول إلى معرفة سبب الحادث. غير أن راجيف غاندي رئيس وزراء الهند أعلن - في أعقاب مقتل الرئيس ضياء الحق - أن حكومته غير مسؤولة عن الحادث ، كما أعلن الحداد لمدة ثلاثة أيام في جميع أنحاء الهند ، إلا أن مسؤولين باكستانيين على مستوى رفيع لاحظوا باهتمام وصول ٣٠٠ من رجال جناح الأبحاث والتحليل الهندي - أي جهاز المخابرات المسؤول عن القضايا الخارجية - إلى كابول قبل حادث الطائرة. وتعتقد باكستان بأن هناك تحالفاً بين المخابرات الهندية وجهاز المخابرات الأفغاني (خاد) ، وجهاز المخابرات السوفياتي (كيه.جي.بي.) ، ويقال إن جنرالاً سوفياتياً مسؤولاً عن التنسيق بين هذه الأجهزة الثلاثة.

ومن المؤكد أن معظم جهود وعمليات جهاز المخابرات الهندي موجهة مباشرة ضد باكستان ، ويعترف المسؤولون في إسلام آباد باختراق جهاز المخابرات الهندي لقواتها المسلحة على مستويات منخفضة ، ويستفيد جهاز المخابرات السوفياتي ونظيره الأفغاني من هذا الاختراق في عملياتهم المشتركة ضد باكستان. وجدير بالذكر أنه في صبيحة اليوم الذي تحطمت فيه طائرة الرئيس ضياء الحق - أطلق (١٤) صاروخاً على المجمع النفطي الكبير في ميناء كراتشي المعروف باسم كماري ولكن هذه الصواريخ التي يتهم الباكستانيون الهند بإطلاقها - لم تصب أهدافها ، ولو أصابت أهدافها لاشتعل نصف مدينة كراتشي. وتؤكد تقارير الصحف الباكستانية أن طائرتين عموديتين تابعتين للجيش الأفغاني هبطتا عن طريق الخطأ في قضاء خرم الواقع في شمال غرب باكستان كانتا تقلان ضباطاً سوفيات وهنوداً ، ويعتبر وجود الضابط الهندي تأكيداً آخر على التعاون بين دلهي وكابل وموسكو. وفي إقليم السند الجنوبي من باكستان - الذي يشهد حالة من الاضطرابات - تشير أصابع الاتهام إلى عملاء جهاز المخابرات الهندي بتمويل المجموعة المحلية المنشقة. ويقال إن المساعدات الهندية لهذه المجموعات الانشقاقية هي رد على الدعم الباكستاني المزعوم للمتطرفين السيخ الذين يطالبون بالاستقلال في إقليم البنجاب في الهند ، ورغم أن دلهي هي كما هو متوقع الطرف الذي تلقى عليه إسلام آباد مسؤولية معظم المشاكل التي تواجهها إلا أنه مما لا شك فيه أن الهند ونظام كابول - المدعوم من جانب السوفيات - يعملان معاً ضد المجاهدين الأفغان.

فثمة مصلحة مشتركة تجمع الهند وأفغانستان في الحيلولة دون وصول المجاهدين الأفغان الذين كانوا يحظون بدعم ومساندة الرئيس ضياء الحق إلى السلطة في أفغانستان بعد إكمال الانسحاب السوفياتي. وكانت نية الرئيس ضياء الحق المعلنة أن يحتفل بالانتصار الأخير للمجاهدين ، وذلك بأداء الصلاة في المسجد المركزي في العاصمة كابول. وكانت الهند قلقة من أن انتصار المجاهدين سوف يرجح ميزان القوى ضد مصلحتها في المنطقة.

- ونقلنا في طليعة هذا التحليل ما نشرته "صنداى تايمز" - في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٨/٨/٢٨ - عن تهديدات المسؤولين السوفيات في موسكو العلنية لضياء الحق ونظامه ، وأضافت الصحيفة :

"وكانت موسكو قد تعرضت لنكسة كبيرة في ١٩٨٨/٨/١٣ عندما دمر صاروخان أطلقهما المجاهدون أكداً هائلة من العتاد خارج مدينة كابول ، وقالت مصادر رسمية أمريكية أن ٥٠٠ من الروس سقطوا قتلى فيما جرح أكثر من ١٠٠٠ آخرين ، كما دمرت كميات من الأسلحة التابعة للحكومة كانت كافية لمدة سنة. وصدرت عدة تصريحات لمسؤولين حكوميين - منهم رئيس الوزراء وغيره - تشير إلى أن أجهزة الأمن الباكستانية كانت لديها معلومات تفيد أن أعداء ضياء الحق من السوفيات وعمالئهم في كابول وحلفائهم في دلهي يخططون لقتل ضياء الحق وأن الأخير أجاب عندما أخبروه : "الموت والحياة بيد الله".

ثانياً - دور أتباع إيران :

هناك من يقول : إن أتباع إيران وراء تنفيذ هذه الجريمة ، ويذكرون شواهد على ذلك نوجزها فيما يلي:

١- صباح ١٩٨٨/٨/٥ تم قتل المدعو عارف حسين الحسيني رئيس حركة تطبيق الفقه الجعفري في باكستان ، ونفذ القاتل عمله بواسطة مسدس كاتم للصوت ، وألقى المسدس فوق الجثة وفر بعيداً ولم يعثر له على أي أثر ، واتهم أنصاره الحكومة بالقتل في بيان نشرته صحيفة نواي وقت بالأردو بتاريخ ١٩٨٨/٨/٧ وتعهدوا بالثأر له ، رغم اهتمام ضياء الحق الشديد بمقتل زعيم الشيعة ، وكان أحد الذين صلوا على الجنازة. كان ذلك قبل مقتل ضياء الحق بعشرة أيام.

٢ - ضياء الحق كان متهماً من قبل العراق بانحياز له لإيران ، وثبت أنه قدم لهم مساعدات كثيرة ، وعض الطرف عن نشاطهم في باكستان ، ومع ذلك فمؤامرات إيران ضده لم تنقطع ، وكانوا يقاومون مبدأ تطبيق الشريعة الإسلامية بمختلف وسائلهم وطرقهم المعروفة ، ولا يتورعون عن التعاون مع أعداء الإسلام داخل باكستان وخارجها ، ولهذا فمن يراقب تحركاتهم خلال السنتين الماضيتين يعلم أن صلاتهم مع الهند من جهة ومع الاتحاد السوفياتي من جهة أخرى كانت قوية جداً ، وكانوا يتعاونون مع هاتين الدولتين ضد المسلمين السنة في باكستان. وأفغانستان.

٣ - قالت صحيفة "صنداى تايمز" - في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٨/٨/٢١ :
 "... والشيعة في طليعة الذين يتشوقون لسماع نبأ موت ضياء الحق ، ويكثرون له كل كراهية لعلاقاته مع أمريكا (٥)، ولتطبيقه أحكام الشريعة الإسلامية السنية ، ويعتقدون أن ضياء الحق كان وراء اغتيال عارف الحسيني - زعيم طائفتهم - في منطقة قرب بيشاور ، وأقسم أتباعه على الأخذ بالثأر ، كما أنهم احتفلوا حين سماعهم نبأ مقتل ضياء الحق".

وقالت صحيفه "جارديان" - في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٨/٨/١٩ - :
 "وأقام الشيعة احتفالات احتفاءً بمقتل ضياء الحق في مختلف المناطق التي يكثرون فيها ، ومنها براشনার على الحدود الباكستانية الأفغانية وقد اعتقلت الشرطة الباكستانية مائة منهم لإطلاقهم الأعيرة النارية في الهواء تعبيراً عن فرحتهم ، وفي مدينة مجاورة خرجت جموع السنة في موكب ثأري".
 وذكرت "فايننشال تايمز" - في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٨/٨/١٩ - : أن المتشددین الشيعة هم المتهمون بمقتل ضياء الحق.
 ٤ - ذكرنا في المقال السابق - "باكستان وتحكيم الشريعة الإسلامية" - أن لأتباع إيران ثقلاً في الجيش - رغم أن نسبتهم من عدد السكان لا تتجاوز ٥% وهم يزعمون أنها أضعاف هذه النسبة - وأشارت "جارديان" - الصادرة بتاريخ ١٩٨٨/٨/٢٤ م إلى نفوذ الشيعة في سلاح الجو فقالت :
 "يجري التحقيق مع أفراد من الأقلية الشيعية يعملون في سلاح الجو الباكستاني ، متهمين بحادث إسقاط الطائرة ، ويقول دبلوماسي رفيع المستوى : إن فريق الخبراء الأمريكي الباكستاني المشترك قد أخبر أن عضواً في طاقم القيادة في الطائرة الرئاسية كان شيعياً متحمساً وناقماً بسبب اغتيال زعيم الطائفة الشيعية الذي تم في ١٩٨٨/٨/٧ ويبحث الفريق الآن في احتمال قيام ذلك الضابط - عضو طاقم القيادة - بوضع قنبلة على متن الطائرة ، أو قيام أحد غيره بإحداث أمر ما أدى إلى خروج الطائرة عن نطاق السيطرة ، وحسبما يقوله مصدر دبلوماسي آخر فإن فريق التحقيق مازال يحقق في النظرية القائلة : إن عمال الشيعة على أرض مطار بوالبور قاموا بتهريب مواد متفجرة إلى الطائرة ، ويصر السياسيون الباكستانيون أن سقوط الطائرة جاء نتيجة لعمل تخريبي ، وأنهم لا يستطيعون الإفصاح عن هوية الفاعل".
 وإذن فقائد الطائرة - أو عضو في طاقم قيادة الطائرة الرئاسية من الشيعة المتحمسين لإيران - ووزير دفاع آخر حكومة باكستانية أمر بتشكيلها ضياء الحق - محمود هارون - من شيعة إيران ، فماذا بقي من أسرار أجهزة أمن ضياء الحق؟! ، ومن قبل مر ذكر كثافة وجودهم في سلاح الجو هذا الذي عرفنا - على الرغم من اطلاعنا المتواضع - وما لم نعرفه أكثر ، والأمر لله من قبل ومن بعد.

ثالثاً - الجيش الباكستاني :

قالت صحيفة "جارديان" - في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٨/٨/١٩ م - ما يلي :
 "عندما كان المحققون يفحصون حطام الطائرة سي:١٣٥ التي تحطمت يوم ١٩٨٨/٨/١٧ والتي كانت تقل ضياء الحق ، كانت أصابع الاتهام تتجه إلى الجيش الباكستاني ، وفي خضم عدد من النظريات التي تحاول تفسير لغز الحادث برده إلى قوى خارجية غير مسماة ، وإلى سياسيين متعصبين ، يرى المحللون أن البحث عن القتل يجب أن يبدأ بين أوساط الجيش ما لم تتم الإجابة عن الأسئلة الحاسمة التي تبين

الظروف التي قتل بها ضياء الحق. وضياء الحق كان لا يسافر في العادة إلا في وسط احتياطات أمن صارمة ، وكان يعتمد في ذلك بشدة على الجيش ، كما أنه كان يصطحب معه على طائرته - طبعاً ليس حياً في الصحبة - فريق من التقنيين الذين يقومون بخدمة وصيانة الطائرات التي يسافر بها ، ويشرف على هذه الترتيبات المخابرات العسكرية المعروفة باليقظة والحذر لاسيما بعد محاولة الاغتيال التي جرت في عام ، وهناك أجهزة أمنية أخرى تشارك المخابرات العسكرية دورها. وكان ضياء الحق ينتقل - يوم ١٧/٨/١٩٨٨- من قاعدة شديدة الحراسة قرب بهاولبور إلى أخرى في روالبندي ، والأهم من ذلك أن رحلته غير معن عنها وغاية في السرية ، وكان من بين ما شملته مشاهدة عرض سري لدبابة (M1) الأمريكية ، ويقول المحللون طالما أنه من الصعب الاعتقاد أنه بمقدور المخابرات الأفغانية (خاد) أو غيرها جمع معلومات كافية عن تنقلات ضياء الحق بحيث تمكنهم من وضع قبلة أو منصة إطلاق صواريخ في طريق الطائرة ، فإنه من المرجح أن يكون ضباط غير موالين للنظام من المخابرات العسكرية قد حصلوا على معلومات عن رحلات ضياء الحق وتحركاته. والجيش الباكستاني حافل بسجله يمثل هذه المؤامرات. ونظراً لقسوة ضياء الحق مع خصومه ، فقد يكون الضباط الكبار الذين يمكن الاعتماد عليهم أصبحوا أقل من قليل. وفي المرتبة التي تلي ضياء الحق ورجاله الكبار نجد ضباطاً منقسمين على أنفسهم ، وبعضهم يتعاطف مع "بي نظير بوتو" ، ، كما أن كثيراً منهم ذوو ثقافة غربية ولهذا يعارضون توجهات ضياء الحق الإسلامية ، وعلى مختلف اتجاهات الضباط فمعظمهم يعارضون تورط باكستان في أفغانستان".

وقالت مصادر رسمية باكستانية : "إن إمكانية الوصول إلى الطائرة كانت مقصورة على شخصيات عسكرية رفيعة المستوى. ويستبعد الخبراء العسكريون أن يكون سقوط الطائرة بسبب عطل تقني ؛ لأن الطائرة سي ١٣٠ من أكثر طائرات النقل استقراراً في العالم ويمكن أن تحلق بمحرك واحد وأن تهبط في أي مكان يتسع لها ، وهناك متسع في مكان الحادث ، ولو كان الأمر ناتجاً عن عطل تقني لكان الطيار قد اتصل بالراديو ثم حاول الهبوط ولكنه لم يفعل".

وكالات الأنباء ٨/١٨

وذكرت وكالات الأنباء م عن مصادر رسمية أن السلطات الباكستانية حققت مع ٥٠٠ شخص بعد أن ألقت القبض عليهم ، وذلك في مدينتي باوالبور ومولتان الشريقتين ، وفي قاعدة "تساكالالا" الجوية القريبة من إسلام آباد ، وفي مدينة لاهور الوسطى ، كما ألقت القبض على مسؤولي الأمن وعدد من عمال الأمتعة في مطار روالبندي الذي أُلقت منه الطائرة. وذكرت وكالة رويتر - في عددها الصادر بتاريخ ٨/٢٤ نقلاً عن ضابط متقاعد من الجيش - قال : إن المحققين يستجوبون ٥٥ جندياً من سرية المدفعية الثانية والعشرين كانوا يتولون حراسة الطائرة ، وعاملين في سلاح الجو لم يحدد

عددهم بخدمة الطائرة وصيانتها خلال وجودها في باوالبور وطلب الضابط المتقاعد وهو برتبة ميajor كان يخدم سابقاً في السرية المذكور عدم الكشف عن اسمه. ونقلت وكالات الأنباء الصادرة بتاريخ ١٩٨٨/٨/٢١ عن الرئيس الباكستاني بالوكالة قوله:

"إن العدو اخترق الدفاع للبلاد مضيفاً أن لبلاده أعداءً في الداخل والخارج يمكنهم تنسيق عملهم".

ومن يتصفح أسماء الذين قتلوا مع ضياء الحق يتعجب من قوة اطلاع الذين نفذوها. لقد قتل في هذه المجزرة رئيس أركان الجيش الجنرال أخطر عبد الرحمن الذي كان الساعد الأيمن لضياء الحق ، وكان يتولى مسؤولية الاتصال مع المجاهدين الأفغان ، ويدربهم على الأسلحة التي تقدمها لهم الولايات المتحدة الأمريكية ، وقتل معه تسعة من كبار الضباط المعروفين بولائهم لضياء الحق ، وكانوا أصحاب القرار في الجيش ، وكان الذين اخترقوا الجيش الباكستاني هم الذين خططوا لهذه الرحلة ليتخلصوا من جميع الذين يزعجونهم ويقلقونهم ، ولينفردوا بعدهم بشؤون الحكم.

وقالت صحيفة "هانغ" - الناطقة بالأردو - إن بعض الأشخاص في المطار دسوا مادة قابلة للاحتراق في الطائرة ، وإذا ما صح هذا الافتراض فأجهزة الأمن تريد معرفة أسباب إخفاق معدات الكشف في المطار في معرفة هذه المادة.

والذي نراه : أن جيش ضياء الحق هو الذي قتل ضياء الحق ، فلو قبلنا الرواية التي تقول : إن السوفييات وعملاءهم في كابول هم الذين دبروا هذا الحادث - لكان من مستلزمات قبولنا لها القول : إنهم - أي السوفييات - استخدموا عملاء لهم في المخابرات أو في سلاح الجو الباكستاني في تنفيذ هذه المهمة ، وقُلْ مثل ذلك عن الهنود والإيرانيين ، وهذا الذي حذرنا منه في مقالنا السابق ، وهذه هي سيرة قادة جيوشنا المعاصرة.

وكنا نعلم أن الجهات المسؤولة في إسلام آباد وواشنطن لن تعلن عن هوية المسؤولين عن هذه الجريمة ؛ فالولايات المتحدة الأمريكية لا تريد مواجهة عسكرية مع السوفييات أو مع الهند أو حتى مع إيران ، ولو خسرت رجلاً من أبرز سفرائها في الخارج ، وهذا القول يفسر لنا الخبر التالي :

- "صرح مسؤولون باكستانيون في الأسبوع الأول - الذي أعقب تحطم الطائرة أي من ٢٢ إلى ٨/٢٧ - أن الولايات المتحدة حريصة على عدم كشف حقيقة تورط الروس في الحادث". ونضيف : "وكذلك فإنها حريصة على عدم كشف تورط الهند وإيران".

- وذكرت وكالات الأنباء في ٨/٢٠ أن السلطات الباكستانية منعت الصحفيين - وحتى بعض المسؤولين الحكوميين - من الوصول إلى المنطقة التي تحطمت فيها الطائرة. وهذا المنع يدل على أنهم لا يريدون الإعلان عن نتائج التحقيق منذ البداية.

- ونشرت صحيفة "صنداي تايمز" - في عددها الصادر بتاريخ ١١/٩/١٩٨٨ - الخبر التالي : "بات المحققون الباكستانيون مقتنعين أن طائرة ضياء الحق تحطمت بسبب انفجار قنبلة فيها ، وتقول المصادر الرسمية في إسلام آباد أن ست فرق تحقيق باكستانية وأمريكية توصلت إلى شبه إجماع على أن انفجار قنبلة كان السبب في سقوط الطائرة وتحطمها.

ويخشى المسؤولون أن يكون الإفصاح عن تورط تخريبي داخلي سبباً في تقويض الاستقرار السياسي الهش في باكستان ؛ ونتيجة لذلك يتوقع المسؤولون احتمال بقاء نتائج التحقيق سراً دائماً من أسرار الدولة.

وقال مسؤولون باكستانيون : إن مما توصل إليه فريق التحقيق التابع لشركة لوكهيد - المصنعة للطائرة - هو أن الطائرة لم تسقط بسبب عطل ميكانيكي ، أما المحققون العسكريون فهم مقتنعون بأن الأدلة القوية تشير إلى أن الطيار كان قد فقد السيطرة بعد وقوع انفجار منخفض القوة بالقرب من غرفة قيادة الطائرة. وبشكل استثنائي فقد اقتصر التحقيق على شخصيات عسكرية ، وتقول هذه المصادر إن نتائج التحقيق تقدم مباشرة إلى الجنرال ميرزا إسلام بيك المسؤول عن عمليات التحقيق".

وجملة القول فإنهم يخشون من إعلان نتائج التحقيق ، ولو كان المتورطون حزباً أو جماعة من جماعات المعارضة، وكان أصحاب القرار من العسكريين والمدنيين المسؤولين من أصحاب ضياء الحق ومحبيه لأعلنوا النتائج وكانت هذه هي فرصتهم للبطش بالمعارضة أو بركن من أركان المعارضة وتعريضها أمام الشعب.

ولو كان المتورطون هم السوفييات والهنود ، وكان أصحاب القرار في باكستان صادقين في قولهم بأنهم لن يغيروا أو يبدلوا من سياسة باكستان الداخلية أو الخارجية لوجب عليهم الإعلان عن نتائج التحقيق ليخرجوا هاتين الدولتين ، ويكسبوا عطف وتأييد المناهضين للإجرام وسفك الدماء.

فلم يبق أمامنا إلا احتمال واحد : أن يكون أتباع إيران هم المدبرين لهذه الجريمة ، وفي هذه الحالة يصعب أن يعلن المسؤولون نتائج التحقيق ؛ لأنهم في هذه الحالة يخشون حرباً طائفية في البلاد ، وهم لا يمتلكون الجرأة ، ولا يريدون أن يكون مصيرهم كمصير ضياء الحق ، والأدلة التي ذكرناها - فيما مضى - على ترجيح هذا الاحتمال ليست ضعيفة ، أما أن الجيش هو الذي قتل ضياء الحق فهذا مما نجزم به.

عودة إلى تصريحات رئيس الدولة بالوكالة :

نقلت صحيفة "أوبزرفر" في عددها الصادر ٨/٢٨ - عن مسؤولين باكستانيين في إسلام آباد - اعترافهم باختراق العدو لقواتهم المسلحة.

ونقلت وكالات الأنباء ٨/٢١ - عن الرئيس بالوكالة - قوله : "إن العدو اخترق الدفاع الداخلي للبلاد أن لبلاده أعداء في الداخل والخارج يمكنهم تنسيق عملهم".

وهذا التصريح لا بد أن يفهم ضمن الأطر التالية :

- ١- جاء في ظروف بالغة الحساسية ، لا يستطيع المرء فيها أن يكبت عواطفه أو يكبح مشاعره ، جاء بعد مقتل ضياء الحق بأربعة أيام.
- ٢ - طبيعة الرئيس الجديد متحفظ ، يحب أن يسمع ولا يحب أن يتكلم - سنذكر في موضع آخر أهم صفاته - ويعزف عن إصدار التصريحات والبيانات.
- ٣ - صدر هذا التصريح عن رئيس باكستان بالوكالة وهذا يعني أنه يعكس أكداً من التقارير الأمنية ، ويعبر عن وجهة نظر لجنة التحقيق الباكستانية ، ويعبر أيضاً عن موقف كبار القادة من العسكريين والمدنيين ، وبسبب أهمية هذا التصريح وخطورته نريد أن يعرف كل مسلم في أي مكان من المعمورة ما يلي:
- أن اختراق الأعداء في الداخل والخارج لم يبدأ في ٨/١٧ يوم سقطت الطائرة وقتل من كان على متنها ، ولا قبل هذا التاريخ بعام أو عامين ، ولم يكن قاصراً هذا الاختراق على حرب عام التي انتهت بانفصال باكستان الشرقية عن الغربية.
- لقد بدأ هذا الاختراق عندما تولى الإنكليز أمر تأسيس هذا الجيش عام ١٩٤٧ ، وتولوا تدريب ضباطه وتعليمهم وتثقيفهم ، ولم يكن هذا التدريب - في العواصم الغربية - على السلاح بقدر ما كان على الأفكار والمجون والخلاعة والفجور.
- واستمر هذا الاختراق عندما أُسند إلى الأمريكيان أمر الإشراف على هذا الجيش ، فكانوا أقل ذكاءً ودهاءً وشجاعة من الإنكليز ، ولم يرضهم ما كان يرضى به الإنكليز ، وأصبح خبراؤهم ومستشاروهم القادة الفعليين لهذا الجيش.
- وبدأ هذا الاختراق عندما خالف القائمون عليه من الباكستانيين تعاليم دينهم الحنيف ألا نستعين على مشرك بمشرك ، وفتحوا الباب على مصراعيه أمام الباطنيين والقاديانيين والشيوعيين وغيرهم وغيرهم من الملاحدة الفاسقين ، وأصبح هؤلاء قادة في البر والبحر والجو.
- ومن يتصفح تاريخنا الإسلامي يعلم أن هؤلاء لم ولن يكونوا مخلصين لباكستان وغير باكستان من بلدان العالم الإسلامي ، ولن يكفوا عن الكيد والاختراق والتآمر ، ولن يتورعوا عن التعاون مع الشيطان وحزب الشيطان ضد المسلمين الذين يلتزمون منهج الصحابة - رضوان الله عليهم - وقاعدتهم المعروفة من ليس معنا فهو ضدنا.
- وسوف يستمر هذا الاختراق والتآمر مادام لهؤلاء وجود في جيوشنا.
- ومهما كانت الظروف التي دعت الرئيس الجديد بالوكالة إلى الإدلاء بهذا التصريح فقد كان صريحاً وجريئاً ، وغيره لا يعترف بهذه الحقيقة ، ولا يسمح لأحد أن ينطق بها ، أو يحذر من عواقبها على الرغم من وجود هذه الاختراقات وتكرار الهزائم بسببها ، ففي أعقاب هزيمة ١٩٦٧ لم يقل قائد من قادة دول المواجهة مع "إسرائيل" : لقد استطاع العدو اختراق جيشنا ، مع أن عجائز هذا البلد تتحدث عن هذه الاختراقات ، ونشرت وثائق عجيبة في العالم عن هذه الاختراقات ، وبعض هذه الوثائق نشرها الرفاق الذين كانوا يشاركون في صنع القرار أيام الهزيمة. نشرها

بعد أن انقلب الود إلى ضده. ووثائق أخرى نشرها كوهين وباروخ نادل وغيرهما من جواسيس "إسرائيل" الذين زرعتهم في بلادنا. أما الذين كانوا أسرع من الغزلان في الهزيمة ، ولم يطلقوا رصاصة واحدة ضد العدو ، فلقد امتلأت صدورهم وظهورهم وسواعدهم أوسمة وحازوا - فيما بعد - أعلى المناصب.

ليسأل كل مسلم نفسه :

هل يقبل الاتحاد السوفياتي مسلمين ملتزمين بالإسلام كضباط ، بل كجنود في جيشه ومخابراته؟!!

وهل يقبل اليهود في فلسطين المحتلة مسلماً في جيشه. هذه فلسطين المحتلة فاسألوا أهلها؟!!. وقل مثل ذلك عن الهندوس وغيرهم وغيرهم. بل أخبرونا بالله عليكم عن مسلم سني - ولو كان فاسداً منافقاً - تولى قيادة لواء من ألوية جيش الخميني أو تولى وزارة من الوزارات في حكوماته المتعاقبة؟!!

فإلى متى يقبل المسلمون أن يكون النصارى والباطنيون والشيوعيون والملاحدة ضباطاً وقادة في جيوشنا؟!!

وإلى متى نعيش غرباء في أوطاننا؟!!

الهوامش :

- ١ - صنداي تلغراف ١٩٨٨/٨/٢٨ .
- ٢ - تايمز ١٩٨٨،/٨/١٩
- ٣ - ليس في قولنا هذا تعريض لضياء الحق (رحمه الله).
- ٤ - نستثنى مجلات عربية إسلامية - على ندرتها - اهتمت بشؤون باكستان ونسأل الله أن تزداد كماً وكيفاً.
- ٥ - كلهم ذاك الرجل.

تنويه

تتمة هذا الموضوع - "باكستان بعد ضياء الحق" - لن تُنشر في أعداد قادمة من "البيان" ، وستنشر - مع غيرها من الموضوعات المهمة التي سبق نشرها في "البيان" - في كتاب مستقل وسيكون بين أيدي القراء في وقت قريب جداً إن شاء الله.

من ينقذ السودان؟

بالإضافة إلى ما عاناه السودان من الصعوبات المتواصلة ، وما يلاقيه من مختلف المعوقات التي تعوق نموه وتقدمه - فإن كارثة الفيضانات الأخيرة جاءت لتضيف عبئاً جديداً على كاهل هذا البلد العربي المسلم.

وهكذا أضيفت إلى ما سبقها من الحكم الديكتاتوري ، والجفاف الطويل ، والحرب الأهلية التي تغذيها القوى الخارجية التي لا يسرها هدوء العرب ، ولا استقرار المسلمين .

فقد داهمت السيول والأمطار السودان فشردت عشرات الآلاف من السكان وجعلت نهر النيل يفيض ليغرق المساكن والمدخرات ، ويدمر المحاصيل الزراعية ويشل حركة معظم البلد تقريباً .

إن ما يزيد المأساة هو أن هذا الطوفان أضاف إلى معاناة الأعداد الكبيرة من السكان الذين يسكنون في ضواحي المدن في بيوت متواضعة ، وفي أحوال يصعب وصفها ، وأكثرهم من اللاجئين الهاربين من مسرح الحرب الأهلية الدائرة والتي يشب نارها الصليبيون والذين يدعمونهم من أعداء السودان الخارجيين .

والدروس المستفادة من هذه الكارثة كثيرة منها :

١- إن مساعدات العالم الغني لم تكن كما هو منتظر ، وهذا واضح من اعترافات المسؤولين السودانيين ، ومن مقارنة المعونات التي قدمتها هذه الدول بما قدمته بعض الدول العربية والإسلامية. مع أن هذه الدول الغنية عليها التزام أدبي بمساعدة الدول الفقيرة أو التي تتعرض للكوارث التي لا يد لها فيها ، وهذا يوضح انحياز هذه الدول وضعف أخلاقياتها .

٢- لقد انتهزت هذه الدول الغنية (الأوروبية والأمريكية) هذه المناسبة لتكبل (عبر مراسليها الصحفيين وإرسالياتها التنصيرية) التهم جزافاً للحكومة السودانية ، وتصفها بالقصور والتمييز في توزيع مواد الإغاثة وقبل وصول هذه المواد أحياناً ، ولم توجه كلمة لوم واحدة للمتوردين وقطاع الطرق الذين يقودهم "جون قرنق" ونحن نتساءل : ترى لو كانت الأدوار متبادلة ، وقرنق هو الحاكم الشرعي للسودان ومن اتهمتهم هم المتوردون أين ستميل عواطفها الإنسانية !؟

٣- يجب على الدول العربية والإسلامية أن تعتمد على نفسها، وتتكافل من أجل مساعدة بعضها بعضاً، فليس هناك بلد معصوم من الكوارث، وغير معرض للجوائح والمصائب الجماعية، لعل في ذلك ما يساعد على جمع الشمل ، والتنبيه إلى العمل بروح جماعية بين الدول العربية ، وتكون للكوارث والمصائب حكمة وفائدة كما قال الشاعر :

"إن المصائب يجمعن المصابينا"

٤- أن بلداً كالسودان كان ينبغي أن يحسب حساباً لهذه الفيضانات التي وإن كانت مدمرة في قوتها وغزارتها - لكنها لها سابقة في تاريخ هذا البلد ، وعلى هذا فإن من أشد الضروريات أخذ الاحتياطات اللازمة ، وتقديم المعلومات للسكان القريبين من المناطق المعرضة لذلك أكثر من غيرها ، هذا على الأقل ، إذا لم يكن بالإمكان وضع حل يخفف من الآثار المدمرة لهذه الفيضانات .

الانتخابات الرئاسية في لبنان

كان يوم الخميس الموافق للثامن عشر من شهر "آب" المنصرم هو الموعد المقرر لإجراء الانتخابات الرئاسية في لبنان لتعيين الرئيس الجديد الذي سيخلف الرئيس الحالي في الأعوام الستة القادمة.

إن الراصد لمجريات الأحداث عن كثب في بلد كلبنان ليدرك تماماً وبدون عناء أن قرارات رئيسية كالانتخابات الرئاسية وما شاكلها لا يكون لها أن تمضي دون مباركة من قبل واضعي سياسات ذلك البلد ممن تكمن مصالحهم الخاصة في إبقائه في هذه الدوامة من النكبات والفواجع في انتظار اللحظة المناسبة للإجهاز عليه تماماً واقتسام أشلائه، وفي طليعتهم الأنظمة الباطنية و"إسرائيل" وأمريكا وآخرون.

وبغض النظر عن وضع أو سيوضع على كرسي الرئاسة هذه المرة ، فإنه من المعروف جيداً أن النفوذ الذي يتمتع به شاغل هذا المنصب في لبنان بات لا يمكنه من البت في اتخاذ أبسط القرارات السياسية مهما كانت تافهة بل إن سلطاته لا تكاد تتعدى أسوار قصره، وعلى الرغم من ذلك فإن القوى الخارجية ذات المصالح الخاصة في لبنان - ما فتئت تسعى جادة لضمان فوز مرشحها الذي ينفذ رغباتها ليكون فيما بعد ريشتها التي ترسم بها - وبشيء من الشرعية - سياساتها الإجرامية المستقبلية ضد شعب هذا البلد المنكوب؛ لذا فإنه من غير الحكمة الوقوف طويلاً عند هذه الانتخابات التي لا تنطوي على أية منفعة مرجوة بالنسبة للمسلمين، ولا التلهف لمعرفة إفرازاتها، لاسيما أن جميع مرشحي الرئاسة - وكما هو معروف - من المواردنة المتعصبين لطائفهم ، ولا يبقى لأهل السنة إلا فئات الموائد. إن ما يجب أن يحرص أبناء السنة في لبنان - على مختلف فئاتهم - على تحقيقه وإعطاء الأولوية له وفي ظروف حرجة كالتالي يمرون بها - هو مبدأ التعاون والتناصح ونبذ الخلافات الجانبية والوقوف سداً منيعاً في وجه المتآمرين ضدهم، كما أن عليهم أن يشمروا عن ساعد الجد لإبراز شخصيتهم المستقلة ودورهم المتميز الواضح تجاه مجريات الأحداث وأن يسعوا ليكونوا هم الوجه الحقيقي للمسلمين هناك، وأن يفوتوا الفرصة على المتاجرين باسم هذا الدين ، كما يجب أن يكون لهم منبرهم المستقل وأن لا تكون أصواتهم منطلقة من خلال منابر غيرهم من الطوائف والنحل التي تزخر بها أرض لبنان ممن يُظهرون لهم المودة ويبيتون لهم الحقد والكراهية الدائمين.

آخر الكوارث في بنغلاديش

رغم اعتياد أهل بنغلاديش الكوارث فإن كارثة هذا العام فريدة من نوعها ، فقد تواصل هطول الأمطار ، وعمت الفيضانات أغلب أنحاء البلاد ، وكان هناك دمار شامل لكثير من البيوت والمحاصيل الزراعية ، حيث إن ٤٧ من ٦٤ محافظة غطتها المياه ولحققتها أضرار بالغة ، أكثر من ٣٣ ألف ميل مربع من البلاد ، وأصبح أكثر من ٢٥ مليون نسمة مشردين بدون مأوى ، والأخطر من ذلك كله أن عمليات الإنقاذ والإغاثة أصبحت غير ممكنة وقد غمرت السيول مطار دكا المركزي؛ فتعذر نزول الطائرات التي تحمل مواد الإغاثة من أنحاء العالم، وقد تعطلت حركة النقل والمرور البرية وكذلك خطوط السكك الحديدية توقفت نتيجة للسيول التي جرفت أكثر من ٢٥٠ جسراً، وأصبحت وسيلة النقل هي السفن والزوارق عبر السيول التي غمرت الشوارع والساحات والطرق. واضطر الناس إلى شرب المياه الموحلة والمختلطة بمياه المجاري التي سببت الأمراض السارية. ورغم أنه ليس هناك إعلان رسمي عن عدد قتلى الفيضانات فقد قُدروا بأكثر من ألفي قتيل ، وهذا غير الأعداد الهائلة من المصابين بحالات الإسهال والتلوث.

وقد انتهت المشكلة الرئيسية إلى نقص في الدواء، والماء الصالح للشرب، والطعام المطبوخ. وكل ذلك يعتمد على إمكانية هبوط الطائرات في مطار دكا، تعتبر بنغلاديش من أفقر وأكثر الدول ازدحاماً بالسكان (١١٠) مليون ومعدل الدخل السنوي (١٢٠) دولار للفرد.

وهناك أضرار بالغة لحقت المحاصيل الزراعية: قصب السكر، والقنب، والخضار، وقد أتت السيول على كثير من مدخرات الدولة من الحبوب ، وعلى مدخرات السكان من البذور.

والفيضانات تسبب مشكلة دائمة لبنغلاديش لاجتماع عدة أنهار غزيرة على رقعة أرضها الضيقة ، وهذه الأنهار هي : الغانج ، براهما بوترا ، جاموتا ، وماغنا ، وما يتفرع عنها من فروع لا تحصى ، تفيض كلها على السهل الساحلي وتصب في بحيرة البنغال.

وقد أصبحت هذه المشكلة صعبة وملحة منذ انحسار بنغلاديش داخل حدودها الحالية بعد تقسيم شبه القارة الهندية ثم بعد انفصال بنغلاديش عن باكستان، وكل ذلك طبعاً ببركات الاستعمار البريطاني الذي ظل جاثماً على الهند قروناً طويلة ثم تركها نهياً للفقر والفرقة.

انتشار الإسلام

لا يكاد يمضي شهر واحد دون أن تحتل أخبار الإسلام الصفحات الأولى في الصحف؛ فالإسلام أسرع دين في الانتشار في العالم ، ويشكل المسلمون الغالبية العظمى في إحدى وأربعين دولة ، وفي خمسين دولة أخرى يمثل المسلمون أقليات ضخمة ، ويعزى ذلك إلى ارتفاع نسبة المواليد بين المسلمين ، ولا يزال الإسلام يكتسب أرضية واسعة..

ففي مصر - وفي بداية السبعينات - لم يكد يكون هناك طالبة واحدة ترتدي الحجاب الإسلامي في أروقة الجامعة ، أما اليوم فإن الطالبات اللاتي لا يرتدين الحجاب يتن يقاطعن من قبل الأخريات المحجبات، وفي ماليزيا ترتدي الفتيات ما يغطي شعورهن ابتداءً من سن السادسة حتى إذا ما بلغن سن الرشد لبسن الحجاب الكامل ، وفي تركيا قد بات أداء الصلوات في الأماكن العامة والطرق ظاهرة ملفتة للنظر لا سيما في المدن الصغيرة الواقعة في شرق الأناضول التي يتزايد فيها نشاط الجماعات الدينية ، وكانت تركيا قد أعلنت دولة علمانية في العشرينات من قبل زعيمها أتاتورك ذي الاتجاهات الغربية ، وفي دولة فقيرة (مالي) يحرص الفتيان والفتيات على تعلم تلاوة القرآن على الرغم من صعوبة قراءة الأحرف العربية ، وفي السنغال تقوم الدراسات الدينية الإسلامية بنشر آيات القرآن الكريم على ألواح من الخشب لغرض دراستها ، وفي الاتحاد السوفياتي - حيث يبلغ عدد المسلمين من ٥٥ إلى ٦٠ مليوناً وهم الأغلبية في خمس جمهوريات من أصل (١٥) - تخشى السلطات الحكومية من انتشار الأصولية بين صفوف المسلمين هناك.

"تلغراف" الأسبوعية ١٩٨٨/٩/٧م

ارتفع عدد المسلمين في الولايات المتحدة من حوالي عشرة آلاف مسلم سنة ١٩٠٠ إلى ٣ ملايين مسلم في الوقت الحالي ، وينتمي غالبية هؤلاء إلى مهاجرين قادمين من دول إسلامية ، ولكن نرى أن ثلث هذا المجموع أمريكيون ممن اعتنقوا الإسلام وخاصة من السود. وفي هولندا قبل وزير الثقافة مؤخراً - نتيجة لضغوط المسلمين مدة عشر سنوات - باستيراد ١٣ ساعة من البرامج التلفزيونية ، وتخصيص ٥٢ ساعة إذاعية في السنة للدعوة إلى الإسلام باللغة الهولندية.

عن مجلة "إسلامك وورلد ريفيو"

الأطفال يدفعون الثمن

تمخض مؤتمر دولي عقد في مدينة ريمي (إيطاليا) في الأسبوع الثاني من شهر أيلول عن صورة مروعة عن الاستغلال والإساءة اللذين يلقاهما الأطفال في دول مختلفة في العالم.

فقد أكد مندوب لبنان الخاص لدى المؤتمر أنه في خلال مدة ثلاثة أشهر من هذه السنة - نيسان ، أيار ، حزيران - تم العثور على جثث (١٧) طفلاً في دهاليز وسلام أبنية مدينة بيروت.

وتوضح الإحصائيات (التي لم تخضع للتحريص) القادمة من لبنان كيف أصبح الأطفال الضحية الأولى للحرب الأهلية ، فمنذ عام ١٩٧٥ م وحتى اليوم بلغ عدد الضحايا من الأطفال اللبنانيين (٧٠٠) ألف مصاب ، (١٧) آلاف مفقود ، (١٠٠) ألف يتيم (١٤) ألف مخطوف (عثر على جثث (١٠) آلاف منهم) بالإضافة إلى (١٠٠) ألف آخرين من المقاتلين المسلحين المنتشرين في الشوارع.

وتكلم متحدث آخر في المؤتمر عن اعتقال الأحداث الذين بلغ عددهم (١١) ألف في جنوب إفريقية وحدها على سبيل المثال ، وعن المتسولين من الأطفال - (٥٠) ألفاً في أثيوبيا - وكذلك الأطفال المهجورين من قبل آبائهم (في الشوارع (٤٠) مليوناً في أمريكا اللاتينية.

وقدر أحد المسؤولين القياديين في المنطقة عدد الأطفال المجهولين النسب في إيطاليا بمليون طفل وهو ما يشكل نسبة ٧% من مجموع الأحداث البالغ عددهم (١٣،٥) مليون.

تايمز ١٩٨٨/٩/١٣

بأقلام القراء

حاجتنا إلى إعلام إسلامي هادف

من غير المعقول أن يتجاهل المسلمون وسائل الإعلام المختلفة الموجودة في العصر الحديث، وهنا كان على الدعاة المسلمين أن يفكروا في خير الطرق لجعل وسائل الإعلام الحديثة عوامل إصلاح، لا وسائل فساد ، ولا سبيل إلى الإلحاد والإفراط.

إعلام إسلامي هادف يمنع شباب المسلمين من التأثر بما تحمله وسائل الإعلام الفاسدة من ألوان الإلحاد والانحلال.

إن الإعلام الإسلامي هو إعلام عقيدة ذو مهمات متشعبة ، ومسؤوليات كبرى ، وأعباء كثيرة وثقيلة تتوزع على دوائر وتمتد إلى آفاق بعيدة مترامية الأطراف ... إنه إعلام غير محدود ولا تنتهي رسالته في معركة يخوضها ، أو عند فكرة يزود عنها ، أو رأي يضمن له الذبوع والانتشار.

ومجابهة التطورات التي تطرأ على ساحة الصراع العقائدي ، وفي ظل التقدم الحضاري الذين ترافقه أو تنبثق عنه تحولات فكرية وانحرافات حادة تعاني منها البشرية وتفرض على الإعلام الإسلامي أن يبصّر بها مجتمع المسلمين ويحميه من شرورها وأخطارها باستمرار وهذا كله يتطلب من الإعلام الإسلامي أن يكون في مستوى ما هو مدعو للقيام به في وجه تحديات وقوى وخصومات قديمة ومتجددة. إن المسلم مطالب بالإعلام والدعوة لدين الله مادام فيه نفس يتردد ، ولقد تجلت جهود المسلمين الأوائل في الإعلام بدين الله وتحمل المكائد والصعاب في سبيل ذلك وعدم التواني عن المجاهدة والمكابدة على الرغم من مؤامرات الأعداء ومناصبتهم العداة للإسلام والمسلمين وحسبنا أن نشير إلى سير الصحابة - رضوان الله عليهم - وما عانوه وما تكبدوه من مشاق في سبيل التبليغ بكل مراتب التبليغ والتبشير حتى تقدم موكب الإسلام الزاحف عبر الأراضي الشاسعة والبلدان الواسعة بما يشهد لهؤلاء الدعاة الأبطال.

إنهم كانوا إعلاميين ناجحين بل ودعاة مجاهدين لنشر الإسلام في ربوع العالم كله ، وأما اليوم فإن أولياء أمور المسلمين في مختلف الأقطار الإسلامية والعالمية مطالبون بأن يضعوا حداً للعبث ومظاهر الفساد في وسائل الاعلام بصورتها الحالية بأن يراقبوا ويمنعوا من إغراق المسلمين وأبنائهم بالتيارات الضالة المضللة وإشاعة الفساد والانحلال بينهم وخاصة الشباب.

عوض عبد الله بارحمة

الفكر المطلوب

من يظن أن على كل مسلم إدراك المفاهيم الإسلامية والنظرات الواقعية الإسلامية والنظرات الواقعية للمجتمع الإسلامي وأن يكون لديه تصور شامل لما يجب أن يكون عليه حال الأمة وأن يدرك المؤامرات التي تحاك ضدها والغزو الفكري الموجه نحوها.

يخطئ من يظن ذلك لأن المفاهيم ليست متناً أو مقرراً دراسياً يكفي حفظه أو تكفي مذاكرته فحسب.

إن الفكر الإسلامي - وأي فكر - يختلف مدى إدراك أتباعه كما يختلف هذا الإدراك من فرد لآخر وذلك حسب مرونة عقل هذا الفرد ، وحسب قدرته على معرفة أسباب الداء واكتشاف الدواء له. ومن ميزات هذا الدين استيعابه لجميع الطبقات الاجتماعية مهما كان مستواهم الفكري أو المادي أو قدراتهم ومواهبهم.

ندرك مما ذكر أن المطلوب من كل مسلم أن يدرك ما هو معلوم من الدين بالضرورة وأن يدرك المفاهيم الأساسية لهذا الدين وأن يكون على حذر من المفاهيم الخاطئة أو الآراء المغلوطة ، وما سوى ذلك فحسب قدرته وموهبته وتخصص ، أما كيف يتسنى له هذا فذلك مبحث آخر .
نسأل الله التوفيق والسداد وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
ناصر بن عبد العزيز آل عبد الكريم

خطوة في المسار الصحيح

هناك قصور ملحوظ في مجال العلم الشرعي يتفق عليه جل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، وهو راجع إلى أسباب كثيرة لا مجال للخوض في تفاصيلها، وأهمها عدم الاهتمام المتعمد، والإهمال المقصود لهذا الجانب من قبل الذين يسكون بجانب التخطيط التربوي للأجيال الإسلامية.

وهذا القصور لا يستدرك - ولا يزال - عن طريق المحاضرات التي تعقد هنا وهناك، وتخضع لاعتبارات أغلبها لا يقوم على أساس تزويد المسلم بالمعلومات المحددة والواضحة والأساسية التي يبنون عليها فهمهم للواقع الذي يعيشون فيه. وإدراكاً من "المنتدى الإسلامي" لذلك، وحرصاً منه على تقديم النافع من العلم الشرعي في حدود الطاقة، ودون إنفاق الجهود في الشكوى والتذمر واقتراح الحلول الكثيرة التي يبقى أكثرها حبراً على ورق ! فقد عقد دورة مكثفة (ولمدة أسبوعين من ١٩٨٨/٨/٥ إلى ٨/١٩) للعلوم الشرعية، ودعا إليها الراغبين من الإخوة الذين يديرون بعض الأنشطة الإسلامية في أوروبا، وقدم المادة المدروسة بعض الأساتذة المختصين في علوم العقيدة، وأصول الفقه، وأصول الحديث، والتفسير ، واللغة العربية.

وقد أعطيت فكرة مكثفة عن بعض العلوم الإسلامية ومصطلحاتها ، وهي وإن لم تكن كافية إلا أنها تساعد على تأصيل الأفكار ، وإزالة الغموض عن بعض ما يشكل عند مطالعة كتب العلم الشرعي ، وقد أكد على الجانب العملي التطبيقي من هذه العلوم دون الخوض في دقائقها والتي لا تهم إلا المختصين والمتفرغين. بالإضافة إلى دروس تقويمية ألفت أضواءً على مسيرة الفكر الإسلامي الحديث ، والإضافات التي أضافها إلى الثقافة الإسلامية بشكل عام ، والتحديات التي لازالت تعترض مسيرة هذا الفكر ليأخذ دوره الصحيح في بناء شخصية المسلم الفكرية المتماسكة ، وقد تركت الدورة صدًى طيباً ومشجعاً في نفوس المشاركين يدعو إلى مواصلة السير إعداداً وتحسيناً.

مكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

مجلة البيان

هدية لمكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

تمت بحمد الله
